الرواية

مجلة أسبوعية للقصص والتاريخ

تصدر مؤقتاً فى أول كل شهر وفى نصفه

صاحب المجلة ومديرها
ورئيس تحريرها المسئول
احمد حسن الزيات

بدل الاشتراك عن سنة
٣٠ فى مصر والسودان
٥٠ في الممالك الأخرى
١ ثمن العدد الواحد

الادارة
دار الرسالة بشارع المبدولى رقم ٣٤
عابدين — القاهرة
تليفون ٤٢٣٩٠ ، ٥٣٤٥٥

العدد ٤٣ — ٩ رمضان سنة ١٣٥٧ — أول نوفمبر سنة ١٩٣٨ — السنة الثانية

فهرس العدد

صفحة			
١٠١٨	المجنون	أقصوصة مصرية	بقلم الأستاذ محمود بك خيرت ...
١٠٢٤	سحر بابل	أقصوصة شرقية	بقلم الأستاذ دربى خشبة ... ...
١٠٣٠	خمسة أعوام فى عذاب ...	مترجمة عن الانجليزية	بقلم الأستاذ عبداللطيف النشار ...
١٠٣٢	الشريدان	للكاتب الفرنسى جوستاف جيفروا	بقلم الأستاذ محمد لطفى جمعة .. ...
١٠٤٤	وقائع مارثان ولدبك	للكاتب الانجليزى ولتر سكوت .	بقلم الأستاذ محمد كامل حجاج ...
١٠٤٩	انتقام رهيب	للكاتب الفرنسى أونوريه دى بلزاك	بقلم الأديب عبدالوهاب مصطفى بحلاق
١٠٥٥	فتاة العصر	أقصوصة مصرية	بقلم الأديب نجيب محفوظ ... ...
٠٦٥١	حاجى بابا أصفهانى	للكاتب الانجليزى جيمز موير ..	بقلم الأستاذ عبد اللطيف النشار ..

المجنون

اقصوصة مصرية

بقلم الاستاذ محمود بك خيرت

لا مناص من الزواج لأنه ركن العمران وسعادة الأسرة . ولا شك فى أن أول الأسباب الحافزة إليه جمال التكوين لأنه مطمح الشباب والباب الذى ينفذ منه الحب، ولكن الجمال والشباب لا يدومان إلا كما تدوم الزهرة الناضرة ، حتى أن المرأة لتلجأ إلى كل الوسائل استبقاء لأثر حسنها المولى . وكذلك الرجل ، فكان مما لا بد منه أن يسد هذا الفراغ عاطفة غير عاطفة الحب تستقر بها هذه العلاقة وتستمر .

نعم إن الزواج فى العصر الحاضر ابتعد كثيراً عن معناه الروحانى الذى كان هناء البيت، لانصراف الناس إلى المادة وافتتانهم ببريقها ، إلا أن العقلاء منهم ما زالوا يحسبون للزواج حسابا كبيرا لأن عليه مستقبلهم ومستقبل أبنائهم وبناتهم

وإذا كان ليس بغريب أن الملاحين يرون غرق السفن بأعينهم ثم يعودون إلى البحر وأخطاره لأنه مادة حياتهم ومصدر رزقهم فأن من غير المستغرب أيضا أن الفتيان الذين يدفعهم جنون الشباب إلى تحطيم سفن الزوجية على صخور غوايتهم يعودون إلى ركوبها لأنهم مضطرون بحكم الناموس الطبيعى إلى التفكير فى الرفيق الصالح من طريق الزواج تيسيراً لمتاعب الحياة ...

ولكن كيف نوفق إلى اختيار هذا الرفيق والقلب عميق بعيد الغور هيهات أن يرتفع الحجاب عنه فنكشف ما ضمت ظلماته من مختلف الشهوات والأهواء ؟

ولقد أمكن للعلماء أن يضعوا للكرة الأرضية خطوط الأطوال والعروض فأمكن لهم أن يهتدوا إلى أجزاء الدنيا العريضة الواسعة، ولكن بحر الزواج الشاسع المتنائى الأطراف لم يظفر يوماً بمثل هذه الخطوط نسير بها قرار القلوب وما اندفن فى أغوارها من معانى الخير والشر وأسباب الاستقرار والانهيار .

نعم إن اختلاط الجنسين وتعارفهما قد يساعد على الالمام بأخلاقهما ولكنه فى الحقيقة إلمام ناقص لأن كلا منهما يجتهد فى كتمان عيوبه ويتكلف الظهور فى ثوب من محامد الصفات ليست فيه وقد تعمى القلوب أيضا عن جمال الصفات بجمال الذات « وعين الرضى عن كل عيب كليلة » .

على أن من الناس ذوى البصيرة النافذة من اعتادت عيونهم تحليل النفوس والنفوذ إليها فيستخلصون أسرار قلوب الناس من سكونهم وحركتهم وحلمهم وغضبهم ومن سرورهم وأحزانهم ومن أساليبهم فى أحاديثهم لأن كل ذلك ينشر من حولهم شبه موجات تحمل فى ذراتها الدقيقة أثرا محسوسا من تلك الأسرار .

وقد كانت « جلسن » من هذا القبيل حديدة

الذكاء بصيرة بعواقب الأمور حتى أنها لما خطبها « كمال » رفضت يده بمجرد نظرها إليه والاستماع إلى حديثه مع أنه فتى سري جميل . ولكنها قبلت يد آخر ليس بالجميل ولا بالدميم وهو مع ذلك رقيق الحال

وقد كانت هذه الفتاة فوق ما هي عليه من أسباب الفتنة ولباقة الشمائل على جانب عظيم من بعد النظر وسداد الرأى تبحث عن كمال السريرة قبل جمال الصورة وتنظر إلى الزواج نظرة التي تريد الحياة إلى جانب رفيق يقدرها ويحبها ، وقد قرأت في سذاجة خطيبها الثانى مادة أولية يسهل عليها تكييفها بحيث تتفق مع طبيعتها وطبعها

ومن أبرز صفات هذه الفتاة أنها لا تجارى فتيات عصرها فيما يسمينه حسنات المدنية فكان من أبغض الأشياء إليها المِشدّ لأنه يضغط على صدرها وأمعائها فيؤثر فى حركة التنفس ويعوق عملية الهضم ؛ وإنما كانت تكتفى عنه بحزام لين خفيف لا يؤذيها ، وعن أربطة الجوارب التى تمنع سريان الدم إلى قدميها بمشبك يصل طرف جوربها بطرف سروالها . وكانت تنفر أيضاً من المساحيق والأدهان والأصباغ لأنها تتلف البشرة وتذهب بمحاسن الوجه وشتان ما بين اللاحة الطبيعية واللاحة المجلوبة ، كما أنها كانت تمقت كشف صدرها وساعديها لأن ذلك يعرضها لتغيرات الجو والأمراض ولا يثمر غير الفتنة والاثم ، وما تبخترت العفة إلا من فتحات الأكمام القصيرة

وكان لأسرة جلسن أطيان فسيحة بشبين القناطر يباشر شؤونها ناظر كان كلما هبط إلى القاهرة تختلى به وتتحدث إليه حتى ألمت بأصول الزراعة الشتوية والصيفية وأنواع المحصولات وطرق رى الأطيان وتسميدها وبذرها وغرس عقل أشجار الفاكهة فيها ومواعيد جمع القطن وحصاد الغلال وتقليم الأشجار وتقليعها فى مشاتلها ولف فسائل النخيل بالخيش أو الحصير لوقايتها من أشعة الشمس إلى غير ذلك

كانت تحيط بكل هذا علماً وعملا لأنها كانت كلما قصدت إلى شبين مع أبيها تمر بالحقول وتجلس عند السواقي وتزور الأجران وتنطلق إلى زرائب الماشية وحظائر الدواب وتشرف على حلب الأبقار وتربية الدواجن وخلايا النحل حتى أن الفلاحين كانوا يدهشون من إقبال هذه الفتاة الناعمة على مثل هذه الشؤون الخشنة

ولقد مر على زواج جلسن وصادق نصف عام كانت السعادة فيه تظللهما بظلها والهناء يرفرف بجناحيه من فوقهما وهو يذهب كل يوم إلى عمله بينما تقوم هى على شؤون البيت ، وكان إذا جاء الليل يقضيان شطراً منه في الحوار والمطالعة ، وإذا حضر الشيخ ابراهيم أشركته معهما فى التحدث إليه لتدرّبه على مثل هذه الأمور التى يجهلها كما أنها كانت ترافقه إلى شبين أحياناً ليكون ما ألمّ به ثابتاً من طريق عملى

وكان الفلاحون يستقبلونها فرحين وقد اصطفوا على جانبى الطريق ، وهى تحييهم وتوزع ابتساماتها عليهم وتسألهم عن صغارهم ثم توزع عليهم ما حملته لهم معها من الهدايا والحلوى . وهى تقصد من كل ذلك أن تمد زوجها للأشراف بنفسه يوماً من الأيام

على هذه الشؤون لاسيما وأن مرتبه من الحكومة ما كان يتجاوز تسعة جنيهات

وكان كل هذا يبلغ مسامع كمال فتثور نفسه ويأكله الحقد على صادق الذى امتلأت يده بهذه السعادة من دونه وهو لا ينسى ذلك اليوم الذى رفضت جلسن يده فيه فيحز فى نفسه أنها تبيعه لتشترى ودّ ذلك الغر الذى ما كان ليطاوله فى المال أو الجمال . ولذلك وقر فى نفسه أن ينتقم بالسعى إلى إفساد هذا الزواج مهما كلفه من الجهد .

وإذا كان الطريق إلى ذلك يقضى بالاتجاه نحو المرأة لضعفها ولأنها خلقت لتحب وتنعم ، ولكنه يعرف من أخلاق جلسن وصلابة عودها ماصرفه عنها إلى زوجها زميله من أيام المدرسة لأنه ساذج سليم النية فهو خير مطية يصل بها إلى غرضه ؛ فيفسده عليها حتى لايبقى لها منه إلا جثة تتحرك أقفرت من تلك الروح التى تحاول إعطاءها شكل القالب الذى فكرت فيه . وكل ما كان عليه أن يهتم له هو إحكام المكيدة التى يدبرها لأن المقدرة فى عينه ليست فى الضربة الشديدة ولكن فى الضربة الشديدة التى تصيب .

* * *

وكان صادق إذا خرج للرياضة فى المساء لايتأخر عن الساعة الثامنة ليتناول العشاء معها . ولكنها شعرت فى الأيام الأخيرة أنه كان يرجع بعد تلك الساعة . وكان إذا سألته فى ذلك يدعى أنه تأخر مع إخوانه لأن الحديث كان يلهيهم بغير أن ينتبهوا ثم يعدها بأنه سوف لا يتأخر بعد ذلك ، ولكنه مع هذا يستمر فى تخلفه ، بل إنه كثيراً ما كان يتأخر إلى منتصف الليل وإلى ما بعده . وأحياناً كان يقضى سواد الليل بعيداً عنها ...

وكان كمال لاتخفى عليه خافية من أحوال صديقه يستدرجه إلى الكشف عنها فى حديث أخاذ ظاهره مغر وباطنه محجوب بما ينمقه له من حديث الأخلاص وصداقة الصغر

وكان خالياً يقضى أكثر وقته بين الكؤوس والغوانى على خلاف صادق الذى لم يكن أول عهده بالحب إلا عند صدر زوجته وهى لاتبسطه إلا بالقدر الذى تستبقيه به ، فكان حبها له كالملح فى الطعام قليله يصلح وكثيره يفسد . نعم إنه كان فى وسعه أن يستزيد منه أو يحسن تذوقه ولكنه كان كالعازف على آلة يجهلها ولم تمرن أصابعه عليها فأوتارها لاتخرج من النغم ما تطرب له أذناه .

وكان كمال يلمس هذا الضعف فيه فاتخذ منه خميرة لما هيأ نفسه الشريرة له من وسائل الكيد . وهكذا أبعده عن زوجته على الصورة التى ذكرناها وهو يشجعه شيئاً فشيئاً على السهر ويدفعه إلى الشراب ثم إلى غشيان مجالس الساقطات من النساء وعند ذلك يخيل إليه أنه عثر على ذلك النغم الذى أخطأ أصابعه فى البيت فيمعن فى الرذيلة دون حاجة إلى إيعاز جديد من ذلك الصديق المفسد .

ولقد فكر صادق فيما ينفقه على هذا السبيل ، وكان قد أهدى إلى زوجته خاتماً من ماس فى صدر زواجه فعمد إلى أخذه بحجة صياغة ذهبه على ابتكار حديث . وهكذا باعه ، ولكنه بعثر ثمنه كما أن المصلحة قررت فصله لتكرر انقطاعه وتراخيه فى عمله

أما جلسن فقد أحست من أول ليلة تأخر فيها

بالخطر الذى يحدق به وبها . وكانت غير مطمئنة إلى ما كان يسوقه لها من وجوه المعذرة فأوعزت إلى أختها بمراقبته . وهكذا وقفت على حركاته يوماً فيوماً كأنما كانت تقع على مرأى منها ، حتى إذا ما علمت بأمر بيع الخاتم وقرار المصلحة ، أحست الهاوية التى عند قدميه وضرورة العمل لزحزحته عنها لأن من أعظم الأخطاء العجلة قبل الامكان والتأنى بعد الفرصة

وكان صادق كلما أراد كمال أن يتقدم به خطوة إلى الأمام فى الطريق الذى دفعه إليه يحاسب نفسه ويوازن بينها وبين نفس زوجته فيندم على ما أساء إليها وفرط فى حقها ويقوم فى خاطره أن يسارع فى الاعتراف لها وطلب غفرانها وهى التى فضلته على غيره وآثرته على فقره . فلما شعر كمال بأن ندمه أخذ يستيقظ وأن صوت ضميره يناديه أسرع إلى خنق هذه العاطفة التى ظن أنه قضى عليها وانتهى منها فشرع يوسوس له بأن امرأته ما كانت لتحبه وإنما أرادته ليكون زوجاً ... وكفى . وإلا فمن هي تلك التى يتقدم لها من الخطّاب من يفضلونه فى كل نواحى الحياة من حسن وغنى وجاه فتعرض عنهم إليه إلا إذا كان لها غرض محجوب . ثم لم تجمعه بناظر الزراعة ليلقنه مبادئها مع أنه موظف ؟ بل لم يفرض عليه الرحيل إلى شبين فى أيام العطلة التى كان أولى بقضائها إلى جانبها ؟ نعم إنها لم تتخلف عن مرافقته إليها إلاّ مرة واحدة . ولكنه في المستقبل لن تقوم له حجة فى اصطحابها ، وهى زوجة عملها فى البيت وهو رجل من شأنه الحركة والسعى . وهكذا ضاعف مخاوفه وسمّم ظنونه فجرفه التيار ..

أما جلسن فلم يساورها شك فى أن كمال هو الذى أفسد ما بينها وبينه وما تزاحم الظن على أمر مستور إلا كشفه . وكانت لا تزال تذكر رفضها الزواج منه وأنه كثيراً ما حاول الاتصال بها وهى تحتقره وتعرض عنه . ثم تعود فتذكر زوجها وخفّته التى جرّت إلى الاساءة إليها وإلى نفسه . ولكنها كانت مع ذلك تلتمس له العذر وقد استغلّ ذلك الشيطان سلامة قلبه وحسن طويّته

وكان على أثر ما انتهى أمره إليه لزم سريره وقد أصابته حمّى شديدة عصفت بعقله حتى أوصى الطبيب بالحذر من إثارة أعصابه لأن الحالة التى أصبح فيها تنذر بثورة عنيفة مقبلة فهو بحاجة إلي السكون والراحة وفيهما سلامة محققة تحول دون وقوع تلك الثورة التى قد تكون سبباً فى شفائه كما قد تكون القاضية على حياته . ولذلك قامت جلسن بنفسها عليه خير قيام وهى تبتسم له وتتحاشى لومه وتشجّعه وتواسيه

وكان صادق فى فترات رشده يعجب بهذه الزوجة التى أخذ صديقه يحذره منها ويرميها بما ليس فيها ، وهو يقول فى نفسه إذا كانت على ما وصف فلم عنايتها هذه به وإشفاقها عليه ؟

وكانت جلسن إذا خلَت إلى نفسها تتناول ذكرى ذلك المجرم الذى كاد يقضى عليه وهى حيرى لهذه الوسيلة الدنيئة التى لجأ إليها والغرض الذى كان يحاول النفوذ إليه منها . ثم تقول إن زوجها صديقه من الصغر ولم يفعل معه مايوجب أن ينقلب عليه بمثل تلك القسوة التى لا ذنب له فيها وقد كانت بالعكس أولى منه بانتقامه فلم وجّهه إليه ولم يوجّهه

إليها . وعند ذلك يتزحزح الغطاء شيئاً فشيئاً عن هذا المعنى الذى طالما حيّرها . وهو أنه أراد من إفساد زوجها أن يسوّئه فى عينيها فينصرف عنه قلبها وهكذا يخلو له بها الجو . وترتّب على ذلك أنه لا بد إذن من عودته إليها لتنفيذ تلك الغاية السافلة بعد أن مهد لها بذلك التمهيد الجهنمى ولذلك انتظرته بقدم ثابتة

* * *

— لقـــد حزّ مرضه فى قلبى فأسرعت لأطمئن عليه

— لا غرابة فى ذلك . وأنت صديقه ... الحميم

— ولكنى سمعت يا هانم بأنه جُنّ

— ... تقريبا . ولذلك فنحن نحرص كل الحرص على راحته

— وهل تظنين أنه سيشفى ؟

— ولم لا ؟

— ولكن مثل هذه الحالة قل أن تجد سبيلها إلى الشفاء لأننى علمت من طبيبه أنه على باب ثورة عنيفة قد تعصف به

— وقد تشفيه ...

— ربمـا . ومع ذلك فالذى يشغلنى كثيراً هو أنت أيتها المسكينة لأنه إذا ذهب فقد استراح وإذا شفى فلن يكون نصيبك معه غير العذاب . فـما الذى بقى لك الآن منه وقد انصرف إلى ملاذّه التى انغمس فيها وهو يقضى لياليه بعيداً عنك بين أحضان النساء وأكواب الشراب . من كان يظن أن هذا الحمل الوديع يهوى إلى هذا المنحدر بمثل هذه السرعة المدهشة وإلى جانبه كنز من كنوز الحسن ... وثمرة شهية لا تطلب غير الحب ... ولكنه على ما يبدو لى جامد الشعور أو ينقصه كثير من سلامة الذوق وإلا لخرّ ساجدا بين قدميك ولجعل لك من قلبه محراباً يعبدك فيه . وعلى كل حال فلعلك تدركين الآن أنك لم تحسنى الاختيار وأن حسابك أخطأ برفضك يدى وإيثارك إياه علىّ ..

(تسمع فى خلال ذلك حركة فى الغرفة المجاورة ولكنه يستمر فى حديثه)

ولـكنك ...

— ولكننى لم أخطئ فى حسابى يوماً ولا خطر ببالى أن أندم على اختياره وقد كان عفّ اللسان . طاهر الثوب سليم الضمير . ولكن الأصدقاء ... قرناء السوء هم الذين جروه إلى هذا الدرك . ومن الغريب أنك تدعى صداقته وتباهى بها ولكنك لم تعمل عملا يدل على تبادل عواملها بينك وبينه

— ومن أدراك أننى لم أنصحه وأحذره من عاقبة ضلاله . ولكن مالنا ولكل هذا وقد قضى الأمر فلمَ تفكرين فيه ولا تفكرين فى مستقبلك أنت . إنك ياجلسن لا تعلمين مقدار الحب الذى فى قلبى لك والعذاب الذى أعانيه فيك ...

ولو أن هذا العذاب كان ابن يوم أو يومين لاحتملته ولقضيت على سببه . ولكنه قديم ، قديم يا جلسن ، من ذلك اليوم الذى تقدمت فيه إليك فأعرضت عنى وحطمت قلبى . وكم حاولت أن أجد السبيل إليك فأرى الأبواب موصدة فى وجهى حتى إذا سافر إلى شبين يوما من الأيام بتير أن

ترافقيه قلت في نفسي لقد سنحت الفرصة . ولكني لم أكن أوفر حظا فرفضت مقابلتي وأغلقت أبوابك من دوني ...

وعند ذلك ينفتح الباب على مصراعيه وينطلق منه المريض وقد احتقن وجهه وانقدت عيناه وكان وافر الجسم قوي البنية فساد السكوت وهو يذرع الشرفة طولا وعرضا ثم وقف أمام صديقه والحمى تقهره والغضب يرجه :

— أنت هنا ؟ شرّفت يا « حبوب » أهلا وسهلا يا « أنس » أليس كذلك يا « جامد » ؟ إنني أعيد على سمعك نفس الكلمات التي كنت تستقبلني بها في مجالس شرابك وفجورك وأنت تدفع الكأس إلى فمي والنساء إلى صدري وأنت هناك تحسّن لي القبيح وتقبح في عيني الحسن لأنك تريد أن أعرف كيف أساير العصر . أما هنا فمعنى ذلك أنك كنت تمحضني النصح وتحذرني من عاقبة الضلال . أليس كذلك ؟ ومن العجيب أنك كنت تمتنع عن زيارتي بحجة أنك خطبت امرأتي من قبلي وأن أدب السلوك ودقة الموقف يحولان دون ذلك ، فإذا جاء الآن بك وأنت الذي كنت تحاول هذه الزيارة من قبل في غيبتي ... لقد كنت أعمى حين وثقت من صداقتك وأحسنت ظني فيك . وما جرني إلى طريق الغواية إلا أنت ، ولا حاول إفسادي إلا أنت ، ولا طعن هذه السيدة الطاهرة في عفتها إلا أنت ؛ فلما أفلتّ آخر سهم من جعبتك وبلغت المأمول من غايتك ، جئت إلى هنا تتسلل كاللص لتسرق امرأتي بعد أن سرقت صوابي وعقلي . جئت إلى هنا وأنت آمن بجنوني آمن بموتي

مالك سكت . تكلم يا حبوب . تكلم يا أنس . تكلم ياجامد ... ولكنك لا تجرؤ لأنني سممت بأذني ورأيت بعيني

نعم أنا الآن مجنون فاحذر جنوني ، وإنني كتب عليّ الموت ولكن بعد أن أجرعك كأسه بيدي

وعند ذلك صرخ صرخة هائلة ، ثم أطبق على عنقه بيديه القويتين فلم يتركه إلا ميتاً

وكانت هي الثورة العنيفة التي أشار إليها الطبيب ... ولكنه شفي !

محمود خيرت

مؤلفات
الأستاذ محمد كامل حجاج

٤٠ بلاغة الغرب جزءان (مختارات من صفوة الأدب الفرنسي والانكليزي والألماني والايطالي مع تراجم الشعراء والكتاب)

٢٠ خواطر الخيال وإملاء الوجدان (متفرقات في الأدب والنقد والفلسفة والموسيقى والحيوان وبه روايتان تمثيليتان)

١٨ نباتات الزينة المشبية (محلى باحدى وتسعين صورة فنية)

١٥ Les Plantes Herbacées (محلى بنفس الصور السابقة)

الكتاب الأول والثاني في جميع المكاتب الشهيرة وكتب الزراعة تطلب من شركة البزور المصرية بميدان ابراهيم باشا

سحر بابل

قصة شرقية

بقلم الأستاذ دريني خشبة

كان القمر الساهر يسكب ذوب فضته على أطلال بابل النائمة فوق عدوة الفرات الشرقية ، حينما خرج الشيخ فوزان من كوخه الجاثم فوق العدوة الغربية ، مبمما شطر المرفأ الساكن ، ليركب في الزورق الذي اعتاد أن يحمله في عرائس الليالي العربية المقمرة إلى عذراء حمورابي[1] الراقدة تحت أضغاث الزمان

وكان الليل البابلي الرائع مفعما بالذكريات ، وكان في كل حبة من لجين القمر المنتثر في صفحة الفرات طيف من أطياف البابليين والأشوريين والأكاديين والكلدان يسبح خلف الزورق ، أو يرقص فوق السكان ، أو يحلق في غرة للشيخ فوزان ... هذا الشيخ العجيب الذي افتتن به الشعب ، وانعطفت إليه أفئدة الخلق ، وسحرت بخوارقه قلوب الناس

لقد كان الشيخ فوزان يلعب بالأفاعي السامة ذوات القرون فما تصيبه ، وما تلحق به أذى ؛ وكان يرسل النظرة الحادة من عينيه الصارمتين فيحرك بها الصخر عن موضعه ، ويلوي بها أعنة الدواب في سيرها ... وكم من مرة تمتم بكلمات لا يفهمها إلا الشيطان فيقبل الشجر فينثر عليه من رطبه ، ثم يمضي تبارك الله فيكون في مغارسه

وكان النسوة من جميع القرى المجاورة يقبلن إلى كوخ الشيخ فيلصقن به حتى يتأذن فيشفي مرضاهن ويذهب أوصابهن ؛ وهو في كل ذلك لا يتجشم شيئاً ، إلا رقية ينفثها في أذن المريض أو المريضة ، أو تميمة ينمنم حروفها المرتبكة بماء البصل ثم يجعلها في جيد الغادة أو ظهر الفتى الأمرد فيهرول سليما معافى بإذن الله

وكان معروفاً مع ذلك بالتقى والصلاح ، ولم يكن أحد يعرف غرامه بالخمر ، ولا ولوعه بالموسيقى ، ولا سيما الناي . وكان فوزان حصيفاً حازماً ، فكان يستعين على هذين بالكتمان

* * *

ركب إذن في الزورق ومعه نايه وزجاجته ، ثم هم ، فهمهمت حوله أطياف الملوك الغر والفتية الصيد من أبناء بابل ... وتبسم القمر الساخر وأخذ يسطع بشدة فوق العمامة المكورة والعباءة البيضاء ... وفي وسط الفرات ، بدا للشيخ أن يتشبه بالملك بختنصر ، فرفع المجاديف وأوقف الزورق ثم جذب الغدام ووضع الزجاجة في فمه حتى ارتوى . وما هي إلا لحظة حتى استدار رأسه وبرق القمر في عينيه ، وامتلأ النهر حوله بالجنيات الجميلات

ومع ذلك كله لم يغب صواب الشيخ ، ولم يضع من حلمه شيء ، بل هم مرة أخرى بالزورق فلم يزل به حتى بلغ شاطئ بابل فنزل فيه ، ومعه الناي والزجاجة

(١) حمورابي مؤسس مجد بابل وصاحب مجموعة الشرائع التاريخية

وسرى بين الأطلال الشاخصة حتى بلغ آثار البرج الكبير فخلع عباءته ، وفرشها فوق حجر عظيم من حجارة المرمر الملقى هنالك ، ثم جلس يحتسى النُّطَفَ الأخيرة الباقية فى الزجاجة

وتناول نايه ، وطفق ينفخ فيه ... وخُيل له أن المدينة الميّتة قد انتفضت تحت الثرى وهبت من سباتها الطويل ، وأرهفت آذانها تتسمع وتَتَطرّب ، فغلا الشيخ فى النفخ ، ولم يبال أن تضج رفات الموتى البابليين

ثم سكت قليلا ، وتوارى القمر الساخر وراء سحابةٍ رقيقة فشاعت فى الوجود رهبة طارئة ، وأمسكت القمراء أنفاسها ، ثم ما هى إلا لحظة حتى رجفت الراجفة تحت بابل فتمايلت أوتادها واهتزت جوانبها وتشققت عن كل جبار عنيد

وظن فوزان أنه يحلم ففرك عينيه وحملق فى الآثار المضطربة أمامه ، لكنه رآها ترقص رأى العين ، فأيقن أنه البلاء من الله ، فتشهد وسبح باسم ربه ، وندم على ما عصى أمر الخالق من معاقرة بنت الحان فى مثل ذاك المكان ، الذى لم يكن يصلح إلا للعظة والادّكار ، والتفكر فى أمر هذه الدنيا الفانية التى تضج أحيانا بصولة الأمراء وجبروت الملوك ، ثم ينفذ الأمراء والملوك إلى أعماق رمومها فهم فى بطونها حديث مروى وذِكرٌ صامتات

ثم انشق بطن بابل فجأة ، فصعد منه جداران عظيمان عُلق بينهما شبحان هائلان ذَوَا أجنحةٍ مثنى وثُلاث ، وقد ربطت أقدامهما بأمراسٍ من نار ، وتدلى الرأسان العظيمان إلى أسفل ، وجعل لهب أزرق ينبعث من بدنيهما ، وشَرَرٌ كبير ينقدح من عيونهما ومنخريهما

وتبسم فوزان مع ذاك ... وحسب أن ما رأي وما سمع إن هو إلا تهاويل مما تصنع الخمر برؤوس المخمورين ... ثم أراد أن ينصرف ، فالتفع بعباءته ، وحمل نايه وزجاجته ... وما كاد يخطو خطوتين حتى سمع أحد الشبحين يقول وهو يبكى : « رباه ! رباه ! تبت إليك ، وندمت على ما فعلت ، وإلا تغفرْ لى أكن من الهالكين ! » . ثم سمع الآخر يقول : « يارب ! وسعت رحمتك كل شئ فكيف تضيق بما حملتنا ؟ اللهم لقد أعذَرَنا الناس فخفف عنا ! »

فخافتَ فوزان بالحديث إلى نفسه : « ما هذا ؟ ماذا أسمع ؟ تالله لأعودن وليكونن لي مع هذين حديث ... أبداً ماصنعت الخمر بى مثل هذا أبداً ! »

وعاد إلى مكانه ، وهدأ من روعه ، ثم حيّا الشبحين بتحية الأسلام فرداها وأحسنا ، وعادا إلى ما كانا فيه من شَجوٍ وشكو

— نَشدتُكما الله يا صاحبيّ أن تقصا علىّ قصتكما !

— عُدْ يا ابن آدم من حيث قدمت ... فما أنت وما نحن فيه !

— لقد سمعت أحدكما يتوب إلى الله ويستغفره ، وسمعت الآخر يستعتبه ، فما ذاك أثابكما الله وخفف عنكما !

ونظر إليه الذى سمعه يستعتب الله فتأفف ثم قال :

— اذهب لحالك الله يامفتون ...

— مفتون ؟... لا والله ما أنا بذاك !

— وما تلك بيمينك يا رجل ؟

— هذه ... ؟... هذه زجاجة !

— ألق بها وانج بنفسك يامسكين !

— وماذا علىّ منها أيدك الله ؟ !

— عليك منها ما ترانا الآن فيه يا مخبول !

— لست أفهم !

— أيكما شرب صاحبه : أنت أم الزجاجة ؟ ألق بها وتب إلى الله ، وآل على نفسك ألا تقارفها قط ، واحمد الله على أن رأيتنا فى هذا العذاب بسببها اكسرها يا أتعس خلق الله ؟

— ولكن ...

— يا ربنا آمنا بك ، وندمنا على خطايانا ... آه ؟ واحرَباه !

— ألا تذكران لى من أنتما أثابكما الله وخفف عنكما !

— إذهب .. إمض بها أيها الخاسر فَسَيُسحتك الله !

— ولكن ... من أنتما ؟

— لن تصدق إذا ذكرنا لك !

— وكيف ؟

— إذن ... نحن مَلَكان !

— من ملائكة الله ؟

— جاهل وغبى ... وهل لغير الله ملائكة يا أُحَيْمَق ؟

— وبم طردكما الله من سمائه ؟

— بهذه التى فى يمينك !

— وَىْ ! والله لاذقتها بعد اليوم أبداً ! ولكنكما ملكان يا صاحبىّ ، فكيف شربتما هذا الاثم ؟ !

— لذلك قصة طويلة فامض عنا هداك الله ، وخلّنا فيما نحن فيه من ذاك البلاء

— لا والله لا أفعل حتى أسمع منكما ، لأروىَ للمسلمين لعلهم يهتدون

— ومن المسلمون هداك الله ؟

— المسلمون ! ألا تعرفان من المسلمون وأنتما مع ذاك تذكران أنكما ملكان من ملائكة الله ؟

— يا أخانا إننا ما نزلنا إلى الأرض إلا فى زمان إدريس عليه السلام ، ونحن فى ذاك العذاب منذ ذاك الأوان !

— ويحكما ! إذن فاعلما أن المسلمين هم أمة محمد صلى الله عليه وسلم !

— أو قد بعث محمد ؟

— بعث محمد وانتشر الاسلام فى المشرقين والمغربين !

— ومنذ كم بعث محمد رضوان الله عليه ؟

— منذ ثلاثة عشر قرناً

— ياربنا لك الحمد . . إذن لن يطول عذابنا !!

— ولِمَه ؟

— لأننا كنا نعرف ونحن فى السماء أن محمداً لايرسل إلا فى آخر الزمان

— صلى الله على محمد وعلى آله وسلم

— أفأنت مسلم من أمة محمد يا أخانا ؟

— مسلم وابن مسلم ولله الحمد

— وهذه الزجاجة ؟ ! ألم ينهكم محمد عن الخمر ؟

— لا حول ولا قوة إلا بالله ! نهانا الله

عن الخمر فى كتابه الكريم !

— وفيم شربك الخمر أيها الفاسق إذن ؟

— عفا الله عنى ياصاحبي ، لقد كنت أقول إنها أهون المحرمات !!

— وى ! لقد وقع المسلمون فيما وقعنا فيه ياهاروت !!

— أجل ! لقد قالوها كما قلناها ياحبيبي ماروت !

* * *

وشده فوزان حينما سمع الملكين يتناديان بهذين الاسمين ، وسرت فى جسمه قشعريرة باردة أبرد من قشعريرة الموت ، ثم لم يملك إلا أن ركع أمامهما وطفق يبكى ويتضرع ويطلب الصفح والمغفرة

— ياهذا أنت مسلم وتركع لغير الله سبحانه ؟

وخجل فوزان فانتصب واقفاً ثم قال :

— أأنتما هاروت وماروت حقاً ياصاحبي ؟

— أجل أنا هاروت وهذا أخى ماروت

— ويلكما !! لقد ذكركما الله فى كتابه إلى محمد !

— ذكرنا الله فى القرآن ؟ وعمرك الله ماذا قال سبحانه ؟

— قال تعالى : « ولما جاءهم رسول من عند الله مصدق لما معهم نبذ فريق من الذين أوتوا الكتاب كتاب الله وراء ظهورهم كأنهم لايعلمون واتبعوا ماتتلو الشياطين على ملك سليمان وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا ، يعلمون الناس السحر وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت ، وما يعلمان من أحد حتى يقولا إنما نحن فتنة فلا تكفر ، فيتعلمون منهما مايفرقون به بين المرء وزوجه ، وماهم بضارين به من أحد إلا باذن الله ، ويتعلمون مايضرهم ولا ينفعهم ، ولقد علموا لمن اشتراه ماله فى الآخرة من خلاق ، ولبئس ماشروا به أنفسهم لو كانوا يعلمون » صدق الله العظيم

— صدق الله العظيم يا أخانا المسلم ... صدقت يا ألله ! صدقت ياربنا ! اللهم فرج كربنا واقبل توبتنا واغفر ذنبنا واعف عنا يا أرحم الراحمين !

واستخرط الملكان فى البكاء . فتنظر فوزان حتى فاءا ، ثم سألهما :

— نشدتكما الله إذن إلا ما أخبرتمانى بما وقع لكما ، مما استوجب طردكما من السماء ، وكتب لكما سوء ذاك المآل !

— إعلم ياأخانا أن الملائكة[1] لما رأوا ما يصعد إلى السماء من أعمال بنى آدم الخبيثة وذنوبهم الكثيرة وذلك فى زمن إدريس عليه السلام ، عيروهم بذلك وأنكروا عليهم ، وقالوا لله سبحانه : هؤلاء الذين جعلتهم خلفاء فى الأرض واخترتهم فهم يعصونك فقال تعالى : لو أنزلتكم إلى الأرض وركبت فيكم ماركبت فيهم لفعلتم مثل مافعلوا . قالوا : سبحانك : ربنا ما كان ينبغى لنا أن نعصيك . قال الله سبحانه . اختاروا إذن ثلاثة من خياركم . وأأسفاه علينا ؟! اللهم لا حول ولا قوة إلا بك يارب !

قال ذلك وتفصد العرق من بدنه كالعسل ، ثم أنّ أنينا مؤلما وقال :

— ولسوء طالعى وطالع أخى ماروت اختارنا

(١) الرواية هنا عن ابن إسحاق بتصرف قليل

الملائكة واختاروا ثالثا لنا أخانا عزرائيل . وكنا ثلاثتنا من أتقى الملائكة وأكثرهم ورعا ، بيد أن عزرائيل كان أحصف منا وأكيس ، فكتب الله له السلامة ، وكتب علينا الشقاء فبؤنا بهذا الخزى الذى ترى !

— لست أفهم ياهاروت فأفصح خفف الله عنك !

— سأذكر لك فلا تعجل ... أوه ، النار تدب فى عروقى فاللهم غفراً وتخفيفا !

— خفف الله عنك ياهاروت ؟

— لا كتب الله مثلها لك ياصاح ! .. أقول : ثم إن الله سبحانه ركب فينا الشهوة الملعونة التى ركبها فيكم يابنى آدم ، وأهبطنا إلى الأرض ، وأمرنا أن نحكم بين الناس بالحق ، ونهانا عن الشرك والقتل بغير الحق ، والزنا ، وشرب الخمر .. فأما عزرائيل فانه لما وقعت الشهوة فى قلبه استقال ربه ، وسأله أن يرفعه إلى السماء فأقاله ورفعه ، وسجد أربعين سنة ، ثم رفع رأسه ، ولم يزل بعد ذلك مطأطئاً رأسه حياء من الله تعالى ... ألا ما أسعده ! ألا ما أسعده !

— وأنتما ياهاروت ، ماذا أصابكما ؟

— كل صَغِير وكل شر يخطر أو لا يخطر على قلوبكم أيها البشر ! لقد لبثنا شهراً أو نحوه نحكم بين الناس بالعدل ، فاذا أمسينا ، ذكرنا اسم الله الأعظم وصعدنا إلى السماء . ثم افتتنا بعد ذلك ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم !

— وكيف !؟

— لشد ما أخجل أن أذكر لك !

— لا عليك فقل !

— اختصمت إلينا يوماً امرأة مفتان يقال لها ناهيد[1] ، فما كدنا نراها حتى أخذت بقلوبنا ... فـ ... فراودناها عن نفسها فأبت وانصرفت ؛ ثم عادت فى اليوم الثانى ففعلنا مثل ذلك فقالت : لا ! إلا أن تعبدا ما أعبد ، وتصليا لهذا الصنم ، وتقتلا خصمى الذى شكوت إليكما ، وتشربا معى من هذه الخمر . فقلنا لها : لا سبيل إلى هذه الأشياء فان الله قد نهانا عنها . فانصرفت ثم عادت فى اليوم الثالث ومعها قدح من الخمر ، وفى نفسها من الميل إلينا ما فيها ، فراودناها فأبت ، وعرضت علينا ما قالت بالأمس ... فنظرت إلى أخى ماروت ونظر أخى ماروت إلى ، وقلت له وقال لى ، ثم قلنا : إن الصلاة لغير الله أمر عظيم ، وقتل النفس أمر عظيم كذلك وأهون الثلاثة شرب الخمر ، فشربت لا هنيئاً ، وشرب أخى ... وشاعت فينا حُمَيّاها فطمس الله بصائرنا ، وارتكبنا كل الآثام التى نهينا عنها !

ولما بلغ هاروت من القول هذا الحد أخذته برحاء العذاب فصرخ وصرخ ماروت مثله ، ولبثا فى ألم وتبريح ساعة كان فوزان يصلى من أجلهما أثناءها ، فلما فاءا وصل هاروت حديثه فقال :

— أرأيت يا أخانا ما صنعت الخمر بنا ؟ لقد قلنا مثلك إنها أهون الشرور فحسوناها فأوقعتنا فى جميع الشرور ، فاحذرها ، ولتكن لك فينا أسوة

— إي وربى لن أذوقها بعد الليلة قط . ولكن

(١) هى فينوس اليونانية . وناهيد هو اسمها الفارسى . والزهرة اسمها العربى

حدثني عفا الله عنك يا هاروت، كيف آل أمركما إلى ما أرى ؟

— حاولنا أن نصعد إلى السماء بعد إذ أثمنا إثمنا فلم تطاوعنا أجنحتنا ... وحقت علينا لعنة الله بما زنينا وعبدنا صنم ناهيد وقتلنا رجلا منكم رآنا ونحن نصنع أولئك فخشينا أن يشهد علينا فيفضحنا ، كأنما نسينا أن الله كان معنا وهو بكل شيء محيط !

— ثم ...

— ثم شق علينا ما حل بنا ، وكان إدريس نبي الله على مقربة منا فتوجهنا إليه ، وقلنا له : يا إدريس : إنا رأيناك يصعد لك من العبادة مثل ما يصعد لجميع أهل الأرض فاشفع لنا إلى الله ... وشفع لنا إدريس ، وجاءه الوحي يُخيّرنا بين عذاب الدنيا نحتمله ونصبر عليه ، وبين عذاب الآخرة يكون سرمداً ... فآثرنا عذاب الدنيا لأنه ينتهي ، ولأنه أخف وأهون

— أوَهذا الذي تعذبانه أخف من عذاب الآخرة وأهون ؟

— وماذا رأيت من عذابنا ؟ أواه لو رأيتنا نعذب بسياط زبانية كزبانية جهنم ، أو لو رأيتنا نرجم بحجارة مُسوَّمة وشواظ من نحاس !

— وناهيد يا هاروت ! ماذا كان من أمرها بعد ذاك ؟

— وا أسفاه ! ! لقد علمناها الاسم الأعظم فصعدت به إلى السماء فمسخها الله كوكباً كلما غرب انشق بطن بابل علينا كما ترى !

— خفف الله عنكما يا صاحبيّ وعفا عنكما ... ولكنكما كنتما تعلمان الناس السحر ، فما ذاك أثابكما الله ؟

— كنا نفعل ، وكنا نحذر الناس مما نعلمهم ونقول لهم : (إنما نحن فتنة) ، بيد أنهم ما كانوا يسمعون ، وهل سمع الناس إلى ما أتاهم على رسل الله ؟

— كلا والله إلا الأقلون ! ولكن يا صاحبيّ ، نشدتكما الله إلا ما علمتماني مما علمكما الله ؟!

— آه ياهالك ! وأنت مع ذاك تحفظ كتاب الله وقد رأيت ما نحن فيه ؟ !

— علماني نشدتكما الله !

— كلا ! بل أنت تنشدنا الشيطان ! إذن فاجلس نعلمك ما يقصم الله به ظهرك في الدنيا والآخرة ...

* * *

وما كاد يفعل حتى زلزلت بابل زلزالها ومادت أحجارها ، وأطبقت الأرض على هاروت وماروت . وفرك الشيخ فوزان عينيه وهو ينظر إلى القمر ، ثم قبض على الزجاجة وخبط بها رأس تمثال فتهشمت وأخذ نايه فحطمه ، وعاد إلى زورقه ، وتوضأ من الفرات وصلى لله ، وأقسم ليكونن أزكى خلق الله ، وأن يهجر الخمر والسحر ... وقد فعل

دريني خشبة

تحت الطبع :

حيـــاة الرافعي

للاستاذ محمد سعيد العريان

الاشتراك فيه قبل الطبع ١٠ قروش تدفع إلى إدارة الرسالة ، أو إلى المؤلف بعنوانه :

شبرا مصر . شارع مسرة رقم ٦

ثمن الكتاب بعد الطبع ١٥ قرشاً

خمسة أعوام في عذاب

عن الانكليزية

بقلم الأستاذ عبد اللطيف النشار

ليس فى وسع إنسان مهما يكن شعوره بالفضل وبالترفع أن يفاخر بأنه لا يعبأ بالمغريات وبدوافع الشر أو بأنه يحتقرها . فالانسان لا يعرف كم تتغير نفسه تحت أحكام المؤثرات

وإنى لأروى على سبيل الاستشهاد على صدق هذه النظرية القضية الآتية التى سمعتها من أحد رجال البوليس السرى فى لوندرا

ماتت زوجة تاجر غنى لم يكن له إلا ولد واحد فتزوج من أرملة فى منتصف العمر . وكان ابنه شاباً فلم يرض عن هذه الزوجة . وكان يشتغل فى غير المدينة التى فيها أبوه فامتنع عن مراسلته بعد هذا الزواج . ولكن الأب كان راضياً بهذا الثمن وهو غضب ابنه فى مقابل تلذذه هو واستمتاعه مدة العام الذى بدأ بالزواج وانتهى بوفاته

ولأسباب لم تظهر قط كان الجزء الأخير من هذا العام كله ريبة وسوء ظن ودسائس في هذا البيت، لأن الخدم الثلاث كن يرتبن فى مقاصد الزوجة . وكانت أقدمهن وقد قضت فى خدمة المنزل بضعة أعوام تعد نفسها فى موضع الجاسوس على كل أعمال الزوجة . وقد كانت تنصت فسمعت زوجها يتوعدها عدة مرات بأن يغير الوصية ويحذف منها اسمها بتاتاً . فكانت تجيبه بأنها تجد الفقر أخف عبئاً من معاشرته على وفرة غناه . وكانت تلك الخادم تستدعى زميلتيها ليسمع ثلاثتهن مثل هذا الوعيد . وقد فهمن جميعاً علة الخلاف بين الزوجين فلما مات الرجل انتظرن أن تكشف الوصية لهن عن جلية أمر الخلاف . وقد كانت دهشتهن عظيمة عند ما جاء المحقق وتبين أن الوصية تحرم ابنه من الميراث وتعطي الزوجة ألفى جنيه فى كل عام وهى كل إيراده طول حياتها

وكان من الطبيعى أن تشعر الزوجة بالراحة والاطمئنان عند ما صارت مالكة لهذا الإيراد . وزالت الحزازة التى كانت تشعر بها أيام حياته. وبعد يومين من الوفاة جلست أمام مكتبها تكتب الردود على التعازى . وقد فرغت سريعاً من هذا الواجب ثم أخذت تقلب أوراق زوجها وهى لاتزال مبتسمة. ولكنها لم تكد تقرأ اثنى عشر سطراً حتى قطبت وعرتها رعشة، لأن الذي كانت تقرؤه إنما هو النص الأخير لوصية زوجها ؛ وهو يحرمها كل شيء ويهب تركته كلها لابنه . وكان تاريخ هذا النص قبل أسبوع واحد من الوفاة ، وعلى الوصية توقيعات شهود من الأحياء . فجلست تفكر فيما سيؤول إليه أمرها لأن البقية الباقية من ذلك العمر ستكون حياة فقر مدقع . ولذلك كان الاغراء الذى تجد نفسها تحت تأثيره قوياً جداً ، فهو ليس بين الشرف وبين انعدامه ، ولكن بين الغنى وبين الفقر . وكان عمرها إذ ذاك خمسين عاماً وهي لا تستطيع الكسب بوجه من الوجوه . ورأت أنه إذا لم يكن أحد ليذيع أمر هذه الوصية فلماذا لا تلزم الصمت ؟

وحملت الوصية فى يدها ومشت إلى الموقد ولكنها وجدته خالياً . وكانت من قبل ذاهلة عن ذلك وعن

أن الليل كان قد انتصف . وكادت تمزق الوصية ولكن الخادم فى هذه اللحظة دخلت ووقفت واجمة فسألتها : « ماذا تريدين ؟ »

ابتسمت الخادم ولم تجبها فقالت : « ما الذي تعنين ؟ »

قالت الخادم : « أراك ياسيدتى الآن منزعجة كأنك قد رأيت جنيًّا »

فحاولت المرأة أن تضحك ولكنها لم تستطع . وقبل أن تتحرك أية حركة كانت الخادم قد اختطفت من يدها الورقة التى ستتركها فى فقر مدقع فصرخت تلك صرخة يأس ، وحاولت أن تسترد الوصية

وعلى الرغم من التفاوت فى السن فان الخادم كانت أقوى المرأتين فاستطاعت التغلب على سيدتها . وتلت الوصية فى هدأة ثم قالت بعد الفراغ من ذلك : « لقد فهمت الآن »

قالت الأرملة : « لقد وجدت هذه الورقة منذ دقيقة فقط وأردت أن ... » فقالت الخادم مقاطعة : « أردت أن تحرقيها لو كان فى الموقد نار »

ثم مضت فترة صمت قالت بعدها الخادم : من حسن حظك أننى أكره المستر وليم ابن سيدى المرحوم فاذا سلكت مسلكاً حكيماً فانه لن يعلم أحد بأمر هذه الوصية »

سمعت المرأة هذه الكلمات فأثلجت صدرها لأنها كانت شديدة الخوف من الفقر ، فاستدعت الخادم وأجلستها بجانبها وعرضت عليها اقتسام الثروة بينهما وأن تدفع لها ألف جنيه مقدماً .

فلما تم الاتفاق على ذلك قالت الأرملة : «والوصية؟ هل تمزقينها؟» فقالت الخادم: « كلا بل ستبقى معى إلى الأبد »

ورأت الأرملة أن خادمتها لا تقبل المناقشة فى الأمر فأذعنت . ومن ذلك اليوم أصبحت الخادم هى السيدة الحقيقية فى المنزل ، فبدأت بطرد سائر الخدم واختارت آخرين . وكان ثانى عمل أتته أن أحضرت ابنها إلى المنزل وأطلقت عليه لقب السكرتير لتلك الأرملة فكان يلازمها فى الصباح وفى المساء

* * *

صارت الحياة مؤلمة فى نظر السيدة لأنها أصبحت تشعر بعد إخفاء الوصية بأنها ارتكبت جريمة منكرة وبأنها باتفاقها مع الخادم قد وضعت نفسها فى مركز ذليل . ولكنها احتملت حالتها خمسة أعوام فى صمت؛ وفى بدء العام السادس ذهب الخدم ليقدموا الشاى إلى كبيرتهم التى يعرفون أنها السيدة الحقيقية فعادوا يصرخون ويعلنون أنها ماتت

وظنت الأرملة أن الحظ عاد إلى الابتسام ؛ ولكن سرعان ما أخفق أملها لما أمرت ابن تلك الخادم بأن يترك خدمتها فتنكر لها وهددها بإظهار الوصية .

ولما رأت أن حالة الذل ستبقى كما هى بل ستزداد لأن خضوعها لهذا الرجل سيكون أشد إيلاماً لنفسها من خضوعها لأمه ـ لما رأت ذلك ملكها اليأس وذهبت إلى إدارة البوليس . ولكن جهلها بالقانون جعل رجل البوليس يضحك منها لأن الوصية التى تخشى شرها قد بطل مفعولها بعد وفاة ابن زوجها عن غير وارث وأصبحت هى من تاريخ الوفاة مالكة للتركة .

كانت إذن فى الأعوام الثلاثة الأخيرة تقبل الذل خشية من ظهور وصية تجعلها هى المنفردة بالمال .

عبد اللطيف النشار

الشريدان

لِلكاتِبِ الفرنسي جوستاف جيفروا

بقلم الاستاذ محمد لطفي جمعة

تزوج كنزلو الكتبي في شارع ڤيكتور هيجو بمدينة ليون من آديلابيد مانجتو ، وقبض مائة قدرها مائة ألف فرنك ووضع يده على المكتبة . وكان مسيو مانجتو والد العروس من أغنى الوراقين وأشهرهم ، يتجر في المطبوعات القديمة ، ويحتكر كتب التعليم المقررة في الجامعات والليسيه، وكانت ابنته آديلابيد وهي وحيدته ، على جانب من الجمال والرشاقة وهي وارثته دون منازع ، فلم يختر لها سوى صبيه كنزلو ، الذي حذق بيع الكتب ، دون أن يفتح واحداً منها ، ولم يخطر بباله يوما أن يستطلع السر في إقبال الشيب والشبان على شراء تلك الأوراق المخزومة المغلفة بمبالغ طائلة ، فكان يحسد سيده ويسخر من جمهور القارئين ، إلى أن شب وأدرك أمور الحياة ، فأخذ يغالي في الأثمان ، ويحسن البضاعة للهواة ومدمني القراء والطلاب حتى وثق سيده بمهارته وأمانته ، فأطعمه وكساه ودعاه إلى داره وقدمه إلى بنته وزوجته ، ثم عقد على الصبي والبنية وخلّف التجارة ونزح إلى قرية شاربونيير ، حيث ابتنى قصراً ؛ وبدأ يعيش عيشة راضية بين الأزهار والكتب النادرة ، يقلب صفحاتها ولا يدري ما فيها ، ويعرضها لزائريه مكتسباً فخر اقتنائها .. إلى أن مات وعلى صدره نسخة ثمينة من العهد القديم .

وبدأ كنزلو حياة البخل التي شرعها حموه وسلفه الصالح ، فكان ينازع زوجته رغبة النسل ، ويلجأ إلى شتى الحيل ، خشية أن يرزقا أولاداً يهلكون الحرث والبضاعة ، ولكنه مع كل ذلك رزق منها بولدين : فتى وفتاة . فلما شبا قليلاً بعثت بهما أمهما — التي احتفظت في عقد الزواج بحق التفريق بين البائنة وصميم المال الموروث — إلى مقاطعة لوسرن بسويسرا ، ليثقفا في خفاء عن والدهما الذي كان يقتله الهم لو علم أنهما يتكلفان مائتي فرنك كل شهر وهو ثمن مجلدين من أمهات كتب الطب الحديث . . . ولأجل أن تصون الأم روح زوجها البخيل من التلف أخبرته أنهما يعيشان عالة على أقارب لها فأنالجت صدره ونام مطمئناً على مال غيره ، تلك الليلة . وفي أحد الأيام من فصل الربيع صعد جورج كنزلو الصغير مع أخته لورا إلى أعلى البرج القائم وسط قصر لوسرن ، للمرة الأولى منذ أن قدما من بلدهما إلى تلك البقعة الجميلة الفاتنة ، فذهل لما رآه من بساط سندسي يحيط بالقصر من كل ناحياته ، تليه هضاب ووهاد ، من ناحية ، وغابات من الناحية الأخرى ، فصاح بأخته الصغيرة لورا قائلا:

— أختاه الصغيرة ! أختاه الصغيرة ! تأملي الأرض حولنا

وكانت حاسة الجمال قوية في الطفلين ، وكان الولد على خلاف والده وجده محباً للكتب يقرأها ويحملها إلى فراشه وعلى مائدة طعامه ويتيه بها . فأجابته أخته لورا وكانت تحب الجمال في كل شيء :

— إنها جد كبيرة تلك الأرض يا أخي الصغير

فقال جورج : لقد أخبرنى أستاذى بذلك ولكن مربيتى أديلفايس قالت لى أنظر بنفسك قبل أن تصدق ، الاختبار مقدم على السماع والقراءة. فقالت الفتاة لورا : ما أقسى أن يكون العالم كبيراً جداً هكذا ، فقد يضل المرء سبيله أو ينفصل عن أحبائه ، إننى أحب أمى وأشتاق إليها . ولكن أبى ... ماذا أقول ؟ لِمَ لا يسأل عنا ولا يزورنا ؟

فتجاهل الولد ذكر أبيهما وأجاب: ما أبهج أن يكون العالم متسعاً فسيح الأرجاء ، فيستطيع الانسان أن يغامر ويبحث عما وراء الأفق ويقارن بين مايقرأ فى الكتب وبين عالم الحقيقة ، ووراء هذه الألوان البنفسجية ! أختى لورا ! إنى سأفتح كل هذه الجبال وأصل إلى نهاية هذه الدنيا ...

— وما هذه الحجارة الملقاة بجانب الربوة الخضراء؟ فقهقه أخوها قائلا : هذه منازل يا أختاه، أفلا تعلمين حدود ليمرن ؟

فسألته فى سذاجة :

— وما هذا الجرى الذى ينساب كالأفعوان ؟

— إنه النهر ! أنظر إلى الجسر الحجرى الجميل !

وقبل أن يتم كلامه قالت وهى تشير نحو الأفق :

— أخى ! أخى ! أنظر ، أنظر ما هذا الذى يُضىء في جانب الجبال الزرقاء كصفحة من البلور الأزرق ؟ فأجاب : هى البحيرة التى حدثتنا عنها مربيتنا اديلفايس ، محذرة إيانا من مائها الخطر الجميل ومن الحور الحسان — عرائس الماء — اللاتى يسكنّ فى خفاياها ويخطفن الأطفال . فأجابته فى تصميم وحزم : فلنذهب إليها ! وكأنما ارتاع الصبي من قولها ، ففغر فاه وصاح بها محذراً ... وكان جميلا فى خوفه وتهديده

— لقد أمرتنا « ماما » ألاّ نخرج منفردين ، فكيف بنا نجسر على الذهاب إلى أقصى المعمورة ؟ فصرخت فيه لورا: ها أنت ذا لا تريد أن تذهب معى ومع ذلك فأنا لا أجرؤ على فتح الأرض ، ولا أطمع فى الوصول إلى أقاصى المعمورة مثلك . سأذهب وحدي إلى هناك ، وبدرت من الطفل ضحكة سخرية زادت فى حدة الفتاة فنادت من أعماق قلبها:

إضحك ما شاء لك الضحك ! فسأذهب وحدى أكشف عن المياه الهادئة الوديعة وأرى حورياتها الجميلة ، بينما تجلس أنت فى عقر الدار تلاعب الدمية الصغيرة كطفلة يائسة ؛ وكأنما ألهبت هذه الكلمات نفس الطفل الصغير ، وأذكت فيه روح الحماسة ، فصاح صيحة الواثق : فلنذهب إلى البحيرة ولتحفظنا الحوريات !

* * *

وفى أصيل اليوم التالى بعد أن آوت المربية إلى حجرتها هرع الطفل إلى أخته وناداها قائلا : هيا بنا ! هيا بنا ! فأجابته فزعة :

إلى أين؟ فأجابها وهو يجذبها لتتبعه رغم تمنعها:

« صه صه ! سنذهب إلى البحيرة !.. »

— ولكن كيف نذهب بعيداً دون إذن ؟ انظر إلى حذائى الحريرى الناعم ! هل يجوز أن نذهب ؟ ثم تراها تمانع وهو يصر ، ألم تعنفه بالأمس عند ما أشفق من الذهاب معها ؟ ألم تنعته بالطفلة اليائسة تلهو بدميتها ؟ وإنه يكيل لها الآن الكيل

مرتين ، والصاع صاعين ؟ فلتذهب معه ، رضخت أم لم ترضخ ، وافقت أو لم توافق ! ووافقت الطفلة فى تحفظ قائلة : فلنذهب من طريق غير طريق القرية ، خوفاً من أن يرانا أحد فتسوء العاقبة

وتولى أخوها الشرح والايضاح « سنتبع فى سيرنا طريق « جرتشن » الذى يدور حول القرية من الناحية الأخرى »

وسارا فى طريقهما بينما أخذت الصغيرة تجمع زهر البنفسج الساحر ، وزهر الثالوث من أبيض وأحمر ، تريد صنع باقة جميلة تهديها إلى حوريات البحيرة ، وشاركها أخوها فى العمل فى نشاط واهتمام وقد زال خوفه وحذره

وأجهدت الفتاة نفسها فى المسير إلى أن وقفت إعياء وقالت : أخى إنى عطشانة ! فأجابها وهو يلهث : وأنا كذلك ، غير أن النهر مازال بعيداً ولا أرى فى هذه الجهة مجرى ولا نبعاً

— والآن ما العمل ؟

وما زالا فى حيرتهما حتى رأيا فلاحاً قد أقبل من بُعد ، يحمل سلة فاكهة من العنب الأحمر الشهى ، ويشاء حسن حظهما أن يكون مع الفتاة جنيه ذهباً ذو بريق يخطف البصر ، وأن يرضى الرجل إعطاءها بعض العنب فى مقابل الأصفر الرنان . وسار الطفلان يتمتعان بالنهام الحبيبات الحمراء البديعة ويلقيان البذور ذات اليمين وذات الشمال ، وأخذت أشعة الشمس الذهبية تميل وراء الأفق البعيد ، بينما أخذ النسيم العليل يهب مداعباً شعر الفتاة فى رقة وفى حنان . وسار الطفلان يحوطهما سكون رهيب ، وصرخت الطفلة « لقد فقدت حذائى ، حذائى الحريرى الناعم ، فكيف أواصل السير بقدم حافية ؟ وتلفتت خلفها فظهرت قلاع لوسرن من بعيد كنقطة سوداء بين السحاب والغمام فارتاعت الطفلة ، وصاحت واجفة :

رباه ! سوف تأكلنا الذئاب العاتية ، وسوف تموت أمنا من اللوعة والأسى علينا . فضحك جورج وهو يقدم لها حذاءها الذى التقطه فى غفلة منها .

— لاتخشى بأساً يا أختى الصغيرة ! ! سنعود ثانية قبل هجوم الليل . . فالى الأمام ! هيا !

* * *

وعادا بعد بضع سنين إلى ليون ، وأظهر جورج نجابة فى الدرس والفهم أدهشت العارفين بجهل أبيه وغبائه وبلادته ، وعللوا ذلك بالرجعى فى قانون الوراثة ، فقد تفوق الفتى فى الآداب والفلسفة ونظم الشعر حدثاً ، وأمسى موضع ثقة أساتذته وإعجاب رفقائه ؛ وظهر نبوغ لورا فى الموسيقى . فلما شباعن الطوق وأدى جورج الخدمة العسكرية ، ماتت الأم ، فوضع الوالد البخيل الجاهل يده على التركة ، وأظهر من الشح فى النفقة والتعليم ماقطع على الفتى وأخته طريق العلم والتثقيف . وحتم كنزلو على ولديه أن يلازماه فى المكتبة للبيع والشراء ولقاء العملاء ، فكانا يأنفان أن يراهما زملاؤهما فى الدرس أو يتحسر الأساتذة على نبوغ جورج وجمال لورا اللذين يريد الوالد وأدهما بين جدران المكتبة العتيقة المظلمة فى ظلال بوائك شارع

فيكتور هيجو . ولم يكن كنزلو يشعر بشيء من ذلك ، بل كان أبخل من خلق الله وأخبث من خلق الله، وكان له فى البخل كلام معقول، ومنطق موزون ، ومبادىء ثابتة ، فقد رأى موسيو كايير عميد كلية الحقوق مرة فى اكتوبر وقد بكر البرد شيئاً ، والعميد شيخ كبير طاعن فى السن ، فلبس كساء له مبطناً بفراء خفيف ، قد نِيل منه ، بعد أن صحب لابسه عشرين عاماً .

وكان انقطع عن شراء الكتب فلا يضير الوراق أن يهيج فيه غريزة الحرص على المال فقال له : « عم صباحاً ياسيدى العميد ! . ما أقسى السرف بالعاقل العالم ، وأسمج التبذير بالحكيم ! ماظننت أن الاحالة على المعاش والانسحاب من حياة الجامعة يبلغ بك ما أرى ! فدهش العميد السابق وقال : وأى شيء أنكرت منا مذ اليوم يا موسيو كنزلو ؟ وما كان هذا قولك فينا بالأمس . فقال :

— لِبسك هذا الكساء قبل أوانه ، فقال العميد : « قد حدث من البرد بمقداره ولو كان هذا البرد الحادث فى يوليو أو أغسطس لكان إبانا لهذا المعطف ، فليست فصول السنة بأوراق التقويم تعرف ، ولا بتواريخ الأيام تقاس ، ولكنها بشعور الأذكياء الذين خلقهم الله وسوّاهم بغير ريش ولا لُبد ، ولا جلود سميكة كالنسور أو السباع » قال كنزلو : « إن كان ذلك كما تقول، فاجعل بدل هذا المعطف الثمين المبطن بالفرو كساء أصم ، لا يخترقه البرد ، بثلاثين فرنكا من مستودع « ألف صنف » فانه يقوم هذا المقام ، وتكون قد خرجت من الخطأ فأما لبس الصوف والفرو اليوم فهو غير جائز فقال العميد : ولِمَ ؟ قال الوراق كنزلو وهو يرجف غيظاً من سرف الشيخ ويود لو يحجر عليه للسفه ؟ ولكنه كظم غيظه لأن غبار آخر الصيف يتداخله ويسكن فى خلله ، فاذا نزل المطر ، وندِيَ الهواء وابتل كل شيء ، ابتل ذلك الغبار ، وإنما الغبار تراب ، إلا أنه لباب التراب ، وهو مالح يتقبض عليه الفرو والصوف فيأكلهما أكل الأرضة ويعمل فيهما عمل السوس فى الخشب والصدأ في الحديد ! فضحك العميد كايير ، ونظر حوله وقال وهو يسرع إلى الطريق :

— حقاً إنك لم تتجر فى كتب العلم عبثاً ... لله ما أوسمك ! أنت وباستير فرسارهان ! ألهذا أهملت تعليم ولدك وتثقيف ابنتك ..؟

فبرز جورج لأبيه بعد أن انصرف العميد وقال:

— ماذا دهاك يا والدى حتى تعترض الناس فى أخص شؤونهم ؟ أتحرم عليه الدفء بثيابه وهى ملكه وقد عتقت وبليت كما شارف صاحبها على الهلاك ؟ وأنت الذي تخشى البرد وتصطك أسنانك فى مقتبل الشتاء ؟ فقال الوالد : أنا أخشى البرد ؟ حبذا البرد من طقس ونعم الشتاء من فصل ، فانه يحفظ رائحة الطعام البائت ولا يحمض فيه النبيذ ، إن ترك مفتوحاً ، ولا يفسد فيه مرق أن يبقى أياماً ، وتطرح الحكومة مدافئ للناس فى الطريق ويشيع بيع القسطل الساخن وهو أرخص غذاء وألذه وأسهله ، ولا يسألك الناس عن تقصيرك فى النفقة إذا لم تذهب إلى ملعب الأوبرا ، محتجاً بداء المفاصل

والزكام والسعال ورغبة الكن، وتدفأ الكنائس بأنابيب البخار فلا نشعر بالصقيع أيام الأحد ونستغنى عن معاكسة الفحامين، ومشاحنة الحمالين، ولا نحتاج أبداً إلى الخشب والورق، وفى الشتاء أفلح فى المران على الجوع، فلا أشعر أثناء الربيع بالسغب فمن صبر عن الطعام شهراً بارداً، استطاع أن يصبر بقية أشهر السنة.

قال هذا وهو يفرك يديه متهللا كمن انتصر فى معركة.

ولما طالت المزوبة على هذا البخيل، خطب لنفسه مدام دولاك الحلوانية التى كانت تغض الطرف عن اختلاس فطائرها، فيأكل منها سبعاً ولا يحاسب إلا على أربع، تريد أول الأمر مصاهرته، فبادر إلى خطبتها آملا أن يلتهم مالها وفطائرها، فلا يفتقر ولا يجوع فى ظل تلك الأرمل الدسمة. فلما غضب الولدان من زيجة أبيهما وتخيلا أن هذه الدردبيس السمجة ستحل محل أمهما أنكرا على أبيهما فعلته، فباع الأثاث بالمزاد وانتقل إلى بيت زوجته الجديدة وفرض لولديه نفقة ضئيلة، فلم يطيقا المعيشة ولم يجرآ على محاسبته أو مقاضاته، واختفيا من وجهه، واتخذ كل منهما سبيله فى الأرض هرباً وقد فرقهما الفقر والقسوة، بعد أن جمعتهما الثروة والحنان، وحمل الفتى بعض كتبه وثيابه وحملت الفتاة حليها الموروثة وحللها وقيثارتها ولم يسأل أحدهما الآخر أنى يولى وجهه .. فضرب الدهر بينهما.

* * *

فى حديقة لوكسمبرج على مقربة من متحف الفنون الحديثة وعلى مرمى حجر من مستشفى « شارتييه » كان شاب جالساً على المقعد الطويل ينتفض من البرد ويتلوى من السغبة وكأنه يعانى سكرات الموت، يكاد شغاف قلبه يتمزق، وكادت أطرافه تذوب، وقد علت الصفرة وجهه والزرقة أظافره، وأحس بأن عظام بدنه تتفتت، وكان البرد شديداً فى ذلك المساء من شهر ديسمبر فسرى إلى ذهنه الذاهل خاطر سريع.

— لماذا لم يدركنى الموت منذ ساعات، بل منذ أيام وأشهر طوال ؟ أفى الانسان تلك الحيوية القاهرة ؟ أم إن الأعمار محدودة كما يقول مارك أوريل فى تأملاته ... ؟ وهل الحظ العاثر يتغير ويتبدل بتبدل حركات النجوم، كما يزعم إبيكتيت ؟ ألا إن الحظ السعيد لن يدركنى ولو أطلق ساقيه للريح ! إن نهايتى قريبة ... وعلى غرة منه وهو سابح فى أحلام شقائه، لا يذكر الماضى، ولا يملك أن يعرض حوادثه، ولا يرى شعاعاً من نور المستقبل، وينتظر انسدال الليل ليتمدد على خشبة المقعد لعلها تكون الرقدة الأخيرة، سمع وقع أقدام مقبلة نحوه فبشر نفسه بمقدم الشرطى الذى سيقوده حتما إلى قوميسير البوليس، فغرفة السجن الدافئة، فان السجن أحب إليه من الحرية، لأن الحكومة أشفق عليه من القدر، ودنا منه سواد وصوت ولكنه لم يرفع رأسه ليتبينهما وسمع صاحب الصوت يقول :

— هل تتألم من الجوع والبرد ؟

فقال : البرد والجوع من شأن من يشكوهما

وحده ، فاذهب عنى بسلام أو اقبض على إن كنت شرطيًا ، فانني متشرد لا مال لى ولا صنعة ولا مأوي ، أو اتركنى أذهب إلى جهنم إن كنت قسيساً

فأجاب صاحب الصوت ، وهو يلمسه بلطف بيد كريمة :

— لست شرطيًا ، ولست قسيساً ، ولكننى أستطيع أن أنقذك من الجوع والبرد والالم والوحدة فنحن أفراد جمعية البر بالطرداء ، نجوس خلال الحدائق العامة ، ونمرق تحت الجسور ، فنفرح بهم ونعينهم ما استطعنا . وليس البر من صلب مالى ، ولكنه بعض الدين الذى فى أعناق المجتمع يسدده لكم أقساطاً ضئيلة على أيدينا ، فهل تقبل ما أعرضه عليك وتعينني على أداء واجبي نحوك دون أن أسألك عن شخصك أو أصل بلائك ؟

فأحس الشاب بأنه مقود إلى صاحب الصوت الهادئ واليد اللطيفة الكريمة ، ولكن البرد والجوع قد أتلفا أعصابه ، حتى غشيت بصره سحابة ، واختلج صوته فى حنجرته ، وخانته رجلاه وهو يحاول النهوض ليتبع المحسن مستسلماً ، فأى بلاء يخشاه بعد الذى هو فيه ؟ وما خوف الغريق من البلل ، والمحترق من مستصغر الشرر ؟ فلا حذر اليوم ولا وجل ، ولا رضى ولا أمن ، فقد استوى لديه الماء والخشب ، والبغض والحب ، وتكافأت فى عينه محاسن الدنيا ومساوئها !

فلما نهض ارتجف وكاد يقع على الأرض ، فأسندته يد كريمة . فقال الشاب كمن يفيق من غيبوبة :

— هل البرد شديد ؟

أجاب صاحب الصوت : نعم وإنه لشتاء قاس

قال : « يخيل إلى أننى سمعت رجلا يقول : « حبذا البرد من طقس ، ونعم الشتاء من فصل ، فانه يحفظ رائحة الطعام ، ولا يحمض فيه النبيذ إن ترك مفتوحاً ولا يفسد فيه مرق إن بقى أياماً ، وتطرح الحكومة... أختاه هذا هو حذاؤك الحريرى الناعم ... » . ولم يكمل كلامه بل سقط على الأرض ، فظنه المحسن ميتاً فحمله على ظهره إلى أقرب سيارة ، وهو يحس نبضه ، ويفرك صدره ... وفتح الشاب عينه بعد ساعتين وهو يحس بالدفء والحياة ورائحة الطعام تهب على وجهه ، فطلب إليه أحد الخدم أن يدخل الحمام قبل الطعام ، وأن يترك ثيابه ليلبس سواها جديدة ؛ ولما أكل ونام وتيقظ لم يسأله أحد عن شخصه وتركوه أياماً حتى استعاد قوته ونشاطه وعرضوا عليه أن يتعلم صنعة من الصناعات الرفيعة كالتصوير أو الموسيقى أو إحدى الحرف النافعة كصنع الأثاث أو النسيج الراقى ، فاختار التصوير واجتهد فى إتقانه ، ولكنه كان يقضى معظم وقته فى المكتبة ويحمل كتباً لا يفارقها ، وعبثاً حاولوا أن يقصوه عن القراءة حتى يحسن فنه فيربح منه مايعينه على هوايته . وكانت أيام الشتاء قد ولت وعاد الربيع بأزهاره وأطياره ، وعاد الشاب إلى كتبه وأشعاره ، إلى أن انتهز فرصة ، فاستأذن فى الخروج ، ولم يعد إلى الدار ، بل عاد إلى حياة التشرد حياة مفلوكة طليقة من كل قيد واتخذ له مجلساً ومقراً فى بارك مونسو على مقربة من تمثال جي دى موبسان ، ذلك

الكاتب الذى أحبه فى صغره فكان يأنس إلى تمثال أقيم هناك لتخليد ذكرى ذلك الكاتب الذى شغف بقراءة كتبه فى عهد محاه الشقاء من ذاكرته ، ولم يقو على محو روح هذا الكاتب من لوح فؤاده المذهب ، فقد صنع له المثّال صورة امرأة من نساء باريس فى آخر الزمن ، ونهاية هذا العصر ، مضطجعة على « شيزلونج » ومتكئة برأسها الجميل الذى يشبه رؤوس عصافير الجنة ، على معصمها الفاتن ، وفى يدها الأخرى كتاب كانت تقرأه ولعله « قصة حياة[1] » وإلى جوارها عمود من المرمر نصبوا فى أعلاه تمثال جى دى موبسان فى الأربعين من عمره ، وهى السن التى مات فيها نزيل مصحة دوكتور بلانش ، وقد كان هذا التمثال فى أول أيام الربيع مدعاة لتفكير الشاب وتأمله ، فان المرأة الراقدة فى يقظة النعسان ، وإن كانت من المرمر الملون ، إلا أنها ناطقة بعشرات المعانى ، التى لا يدركها إلا من تذوق حياة باريس ووقف على الصورة العجيبة التى أودعها المؤلف كتبه ، سواء أكانت القصص الطوال أم الروايات القصار ، أم النوادر الصغيرة « الغاليّة[2] » امرأة فى مقتبل العمر وروعة الجمال عليها كل مظاهر الفتنة والحيرة أمام لغز الحب والحياة ، وكأنها تطلب حل هذا اللغز ، من ذلك الكتاب الذى تقلب فيه أجفانها أثناء تقليب صفحاته ، تقرأ بعينيها وعقلها وقلبها ، هناك بعيداً جداً تتبع رجلاً فى خطواته وتسأل نفسها عن وفائه وخيانته ، أهى مهجورة فى مضجعها ، أم منتظرة حبيبها ، أم يائسة من لقائه ، أم تائبة بعد أن اكتوت بنار الحب اللاذعة ؟

فكان الشاب يجلس حيال هذا التمثال فى وقت الأصيل وبين يديه كتاب ، وفى لحظة يستعرض حياته ويحار فى مصيره ، ولكنه كان يقضى النهار متسكعا لا عمل له . كل ما يملأ ذهنه تلك الطيور المغردة المتنقلة بخفة أجنحتها بين الأغصان ، ثم مناظر الطبيعة فى موسم الربيع الساحر ، فى تلك المدينة الباهرة الجمال . وكان أحيانا يقصد إلى بعض المتاحف والمكاتب فيسلخ فيها بعض ساعات النهار ثم جاء الصيف ومر سريعاً ... ثم جاء الخريف وعادت السماء إلى الوجوم والتلبد بالغيوم وبدأت أمطار باريس تهطل مدرارا ، والبرد يتضاعف ويصبغ أفكاره بالسواد . أين يجد حياة تقيه متاعب الشتاء ... خطر له أن يبيع الكتب القديمة على ضفة النهر ... وأثناء تفكيره كتب قصة عن حياة طفلين ، ونظم قصيدة فى حنان الأم وبعث بهما إلى جريدة «الماتان» لأنه تفاءل باسمها ، أليس كل الخير والبركة والبشاشة فى البكور والبكور فى الصباح ؟

وجعل عنوانه مكتب البريد بشارع بونتيبه ، لقربه من بستان مونصو ، حيث تمثال مؤلفه المحبوب . ولكن الجريدة لم تستجب له ، ولم يشتر أعدادها بانتظام ليرى قصته وقصيدته . وضاقت الدنيا فى عينيه من جديد ، وندم على أنه ترك بيت المحسنين الذين أنقذوه أول مرة وخجل أن يطرق بابهم ،

---

(١) قصة Une vie من أشهر كتبه

(٢) Histoire gauloise قصة فيها مجانة وخلاعة نسبة إلى بلاد « الغال »

ولعله نسي مقرهم ، فهل يترك نفسه للموت البطيء وكان في العام الفار أقرب إليه من حبل الوريد لولا أن أدركه الله . فلن يتحمل الآلام القديمة من جديد ، فلا بد له من الخلاص من الحياة ، فاستجدى ثمن سم سائل في زجاجة صغيرة ، استجدى امرأة شابة ، ظنها ذاهبة إلي موعد غرام ، والمرأة أكرم ما تكون عند ما تقصد إلى لقاء الحبيب ، فعاطفتها أرق وقلبها ألين وأرحم ، وهو شاب في مقتبل العمر ، لا يزال به أثر للجمال ظاهر ، وبقية من نعمة مفارقة فأخذ الصدقة ، ليدفعها ثمناً للنزع ثم القبر المجهول ، إن رُخامة « المورج[1] » أحن على ضلوعه من البرد والجوع ومن هذه المدينة ذات الجمال والأضواء بل أحن عليه من أبيه . ولما ظفر بالسم عادمتهللا ، لأنه سيقضي على آلامه إلى الأبد ، وفي لمحة ذهن لامعة تذكر أبياتا لفيرجيل :

إذا أشرفت النفس الحزينة على الموت
تجردت من همومها واستبشرت
سوف يكسر الموت المواني أغلالها
ولا يهمها أن تخرج مختارة أو مرغمة
فانها تعبر القنطرة في طرفة عين
عبور القنطرة بالنار أو بالماء
بالخنجر أو بالسم الزعاف . إن العين لن ترى ، والأذن لن تسمع ، والعقل لن يذكر ، عبور القنطرة .

فكررها وترنم بها ، وكأنه يقرؤها في كتاب قديم في ركن مكتبة عتيقة في شارع مظلم ، في مدينة قاتمة ، فمن هو وما هي المدينة ؟

ذهب إلى الحديقة — بارك مونصو — ولم يقصد إلى المقعد الذي تعود أن يجلس عليه ، بل أخذ سمته إلى ناحية قصوي وأخرج القنينة من جيبه ، كانت كقارورة العطر التي يفوح منها ريح الموت المرعب . ونظر حوله فلم يجد حياً عاقلاً سواه ، غير أنه لمح طائراً صغيراً يبني عشه في أغصان الشجر فضحك ضحكة عالية وهو آمن ألا يسمعه أحد وقال : حتى صغار الطير مسخرة للحياة ، تلتمس رزقها وجرعة الماء وتبني عشها ذرة فذرة وقلامة فقلامة ، وتغني وتعشق وتخضع للحب كما تلتقط الحب ، وتستهدف لحصاة الطفل ، ونبل الصائد ، ومنقار الجارح ومخالبه ، وأظفار القط الجائع ، لتبيض وترقد على صغارها حتى تفرخ وترتاش ... أما الانسان العاقل الطموح إلى الحياة ، المدرك لدقائق الدنيا ، المتطلع لأسرارها ، يبتلى ويجوع ويبرد ويظمأ ويبأس وهو آمن . ربي لِمَ لم يصنعوا قانوناً يضمن لنا الحياة كما ضمنت أنت الحياة لهذا الطائر ؟ لقد تركته طليقاً وتركونا في أقفاص ضيقة أتراك تحاسبني وتسألني عن تلك الثمالة من عمري .. ولكن إذا كانت هناك بقية فلِمَ مكنتَ لي شراء هذا الدواء ، وأعددتني للموت هادئاً في ذلك المكان المهجور ، وسط المدينة الصاخبة ؟ إن قليلا من مالهم وطعامهم وثيابهم ونارهم ، يرد عني غائلة الردى الذي حببتَه إليَّ ! أهذا ولدتني أمي الحنون وأرضعتني وخافت عليَّ عاديةَ الهلاك طفلا وفتى ويافعاً ؟ ترى كم من فتى مثلي في موقفي هذا بين يديك في تلك اللحظة الدهشة . وما قصصهم ؟ وما هي طريق المسيح التي وُصفت بالعذاب وهو يحمل صليبه ؟ هل كانت خشبته أثقل على كاهله من خشبتي التي لا يراها أحد ، ولكني أشعر بعبئها ؟

(١) معرض جثث المجهولين في باريس

هأنذا أقصد إلى الجولجوتا طائماً ، وليس ورائى حواريون يبكون ولا جنود يخزوننى بأسنة رماحهم ولانساء من الأهل والمابدات يندبنى . هأنذا أصنع خلاصى بيدى ، ولكن أصنعه بخطيئة حلوة ، لأنها تحد من شقوتى . غداً يقرأون نبأ مصرعى، سأموت مجهولا ويقولون شريد قضى ! مجهول لا يمت لأحد بصلة ، ولن تذرف عين على جسدى العارى دمعة واحدة . ألا وداعاً أيها الحزن الدائم وأيتها المخاوف من برد الساعة الرابعة ، وأيها الجوع القارص وأيتها الذكريات الغامضة . سيفوز حيٌّ ضعيف عاجز ، بالانتصار على الطبيعة وعلى قوة القدر ، سأعو بجرعة واحدة أعواماً طويلة من الشقاء المرتقب . وسأرتاح فى لحظة غفران ذنوب لم ترتكب وسأخلص نفساً ، وكأنى أخلص النفوس جميعاً .. إلهى ! إلهى ! لماذا تركتنى ؟

ثم رفع يده بالزجاجة ، فتجرع نصف ما فيها وإذا بصرخة مدوية ، أفقدته بقية رشده ، فلم يتم شرب منيته وأرخى يده . ترى من صاحب هذا الصوت المشئوم الذى أفسد عليه جمال تلك اللحظة الرائعة ؟ من ذا الذى تدخل متطفلا بين الموت وبينه ؟ من يكون ذلك الثقيل الذى لم يدرك جمال البرهة الرهيبة المقدسة ؟ من قطع تلك المحادثة بينه وبين ربه الذى يصغى إليه فى حنان ورحمة ويعد الملائكة لاستقباله ؟ أو .. في غضب ونقمة ويأمر الشياطين ليجروه إلى سقر . هل كان دانتى اليجييرى كاذباً إذ وصف عذاب المنتحرين فى تلك المهزلة ؟ ثم أغمض عينيه وراح فى غيبوبة مظلمة . ومضت ساعات طويلة قبل أن يعود إليه رشده ، وفتح عينيه فاذا به فى غرفة مشرقة وإلى جانبه امرأة فى ريعان الشباب تحنو عليه وترعاه ... وقد حملته إلى سرير نظيف وفراش ناعم وأشعلت ناراً وجلبت له طعاماً ونبيذاً وأزهاراً يانعة . فشعر بالحياة تعاوده . وعرف أنها عاملة فى أحد مخازن الكتب ، وأنها كانت في الحديقة بانتظار حبيبها الذى أخلف موعده فرأت إنقاذه خيراً من الصبر على صديق متباطىء ، فهل أخطأت ؟ نعم أخطأتِ ولكننى أحببتك منذ رأيتك ، وغفرت لك ذنب إقصائى عن الموت الذى كنت أنشده .

وقبلها وضمها إلى صدره . وشعر بأن قوة تجذبه إليها ، ولكنها مانعت ، لأنها لا تزال مرتبطة بالآخر الذى كانت تنتظره، فلتقاطعه أولا، بصراحة لا تعرف المواربة . ستذهب إلى الحديقة فتلقاه وتودعه ، وهى لن تلين له بعد اليوم ، وإن كان جديراً بشكرها لأنه يسر لها إنقاذ حياة الرجل الذى أحبته ، فوافقها وصحبها إلى سور البستان ، وشهد خلال أعواد الحديد والأغصان موقفها . فانه لم يزد على دقائق ممدودة

قالت له فى رفق : إن ما كان بيننا قد انتهى . والماضى لا يعود ، وداعاً .

وعادت إليه فرحة مسرورة كمن وضعت حملا عن كتفها . فقال لها : أبهذه السرعة تقطعين حبال الود ، وتدفن غير باكيات ذكريات الهوى ؟ فضحكت وقالت : عوضنى الله بدل الدرهم ديناراً ، فانك أنبل وأشجع وقد سمعت مناجاتك كلها قبل

أن ترفع يدك بالسم إلى فمك ، وكنت موزعة بين اللذة والروعة ، وبين الخوف على حياتك والخوف منك . وحسبتك فى أول الأمر شاعراً مجنوناً ، إلى أن ذكرت سيدنا المسيح ، واستغفرت لله من المعصية ، فأيقنت أنك يائس ولكن خشيت أن أزعجك ، فلما رأيت السم يسيل بين شفتيك خاطرت بعمرى في سبيل عمرك . ستعيش وتنجح وتفوز فما أنت للشقاء خُلقت .. وعادا إلى غرفتها . فألفاها عامرة بالكتب التى تشتريها وتستعيرها وبأوراق الموسيقى التى تجيد عزفها فأخذ يقرأ ويأكل وينام وينتظرها وهى تدأب وتعمل وتوفر له مطالبه ، ولا تتألم ولا تضجر كأنها أم فرشت فأنامت ولم تسأله عن اسمه ولا صنعته ، وهو كذلك لم يسألها ، فلو أنهما افترقا وافتقد كل صاحبه لما اهتدى إليه أبد الدهر . وإذ عادت ذات مساء وكانت تحمل رغيفاً ملتفاً فى جريدة قديمة ، لمح اسمه فكتم عنها الأمر ، ثم تناول الوريقة الذابلة وقرأها ... هذه قصته منشورة ، فابتسم . وفى الصباح ذهب إلى مكتب البريد فاذا مكاتيب تنتظره ، وكلها تدعوه إلى لقاء رئيس التحرير لأمر مهم ، فلم يستطع أن يخفى عنها رغبته في الذهاب إلى إدارة الجريدة فعنيت بثيابه ومظهره فراح متقمشاً معطراً ، فلما تقدم إلى رئيس التحرير ، رحب به وقال له : يهمنا أن تساهم فى تحرير جريدتنا التى سرها نشر قصتك وقصيدتك ، ولا ريب أنك كنت تتجول فى الأقطار تجمع مادة لكتبك وهذا الذى دعا إلى إبطائك فى تلبية دعوتنا . إنك من خول كتابنا المطمورين ، ولعلك غنى ، تعمل لأجل الفن ، ولكنا لا نقبل مساهمة بغير أجر . سندفع لك مائة فرنك عن القصة الواحدة مؤقتاً أما القصائد فلها حساب آخر وإن شئت فاسحب من الصيرف قسطاً على المحاسبة ، وليكن ألف فرنك لنضمن تعاونك فذهل من كرامة الرجل ، وأراد أن يشعره بجاهه فقال له :

— إنى أقبل لأسرك ، فلست بحاجة إلى المال

فقال الرئيس : إن اسم كنزلو ليس غريباً علىّ . أتعرف صاحب مكتبة شهيرة بهذا الاسم فى مدينة ليون ؟

فقال جورج كنزلو — إذ لم يكن سواه — أنا ابن صاحب المكتبة بعينها . .

فقال الصحفى : إنى آسف لما أصاب والدك ، ولا أحب أن أحرك آلامك وقد نشرنا نعيه منذ عام بشىء من التفصيل وأغفلنا ذيول الحادثة خشية ذيوعها .

— فاتنى هذا العدد . . . وإن كنت

— فبعث الرئيس فى طلبه وقدمه متلطفاً ، فطواه جورج وشكر الرئيس وودعه ومر بالخزانة ليقبض القسط الموعود ، ثم قصد إلى مقهى ونشر الصحيفة . وعلم وهو بين الفرح والألم أن والده مات فجأة عقيب مشاجرة بينه وبين زوجته ، فاتهمت بدس السم له فى فطائر دسمة ، وأثبت الدكتور لوكار إمام الخبراء فى الطب الشرعى أن فى أمعائه آثارة من زرنيخ ، فهاج الرأى العام ونعتوها بمدام لا فارج جديدة ، فاعتقلت الحلوانية — مدام كنزلو حالا وهى مدام دولاك سابقاً ، فختموا تركته وجردوا ثروته . وإذا بها تربى على ربع مليون ، وأنكرت التهمة أن له ورثة ، ولكن الجيران شهدوا بحياة وارثين من صلبه ولكنهما غابا غيبة منقطعة ولعلهما يطلبان العلم فى بلاد نائية ولم يبلغهما

عن أبيهما . فهذه الثروة ثروتهما . ولما كان قاتل المورث لايرث فى حكم القانون ، فقد أصبحا بغير مزاحم ، لأن الوصية التى ضبطت فى الأوراق ، أمست لغواً ولم تفد المرأة إلا دليل إثبات عليها ولا تقدر على نفيه. فابتلت عيناه بالدموع وهو يقرأ الخبر المطول وتذكر طفولته وأخته وأمه . ولكن أين هما؟

هل هو فى حلم أم فى حقيقة . وهل كان في عداد الأغنياء عندما كاد يموت من الجوع والبرد . ما أوسع ياربى رحمتك ! وما أعجب تدبيرك وأحكمه.

وهذه الفتاة الغريبة التى أنقذتنى ترى مايعتريها من جنون الفرح إذا علمت أنها لم تنقذ متشرداً ولا طريداً ولا وضيعاً ، بل أنقذت غنياً شريفاً يحب الشعر والأدب ، كان وأخته ضحية البخل وجنون الذهب ، وكانا ذوى مواهب كامنة قضى عليها لؤم الحياة. نهض جورج كنزلو فاشترى أزهاراً وثياباً وأطعمة دسمة وحلياً ولم يقرب الحلوى ، واتخذ مقعده فى سيارة فخمة . وقال : سأتزوج منها اليوم ، وسنبحث عن شقيقتى معاً . لشد مايكون فرحنا جميعاً عندما نعود معاً إلى ليون ، ونفتح أبواب المكتبة . ثم لا نعترض على ثياب الناس ولا نمتدح فصل الشتاء الملعون ، سوف نقضى الصيف فى لوسرن لنرى القصر والحصن والبحيرة والجبل . وسوف نبتنى لأمنا قبراً فخماً ، ونشهد محاكمة المرأة المجرمة . ونثبت وراثتنا ، بأسهل مايكون . أيمكن أن يتجاهلنا أحد ؟

ولما بلغ البيت دفع أجر السيارة بسخاء ، وانتهب درجات السلم حتى وصل إلى باب الشرفة فوجده مغلقاً ، وقد علقت بأعلاه رسالة مغلفة ففضها وهو يلهث

— أخى جورج . لا تحاول البحث عني عبثاً فانى عرفتك بصوتك وملامحك منذ الوهلة الأولى ولكني لم أرد أن أفجعك بما وصلنا إليه من الشقاء . أما أنك لم تعرفنى، فلأن الألم قد أثر فى ذاكرتك . لقد ذقتُ أكثر مما ذقتَ ، ولذا لم أسألك عن نفسك شيئاً . لقد شهدت عاري ، وعلمت من حياتى ما لا يسمح لى بلقائك إذا عرفتنى . أنا شقيقتك لورا البائسة . لقد مات والدنا بيد تلك العجوز التى اختارها بعد أمنا ، وترك ثروة طائلة ، ولكننى لا أجرؤ على الذهاب لإثبات وراثتى دونك وأفضل الموت الآن على مواجهتك ، بعد أن علمت أننى سقطت فى أحضان رجل لم تربطنى به رابطة الزواج أنا التى أنبتَتْنى أمى نباتاً حسناً ، ولم يجن علىّ وعليك إلا جنون أبينا الذى فى الأرض . ستعود إلى غرفتى فلا تجدنى وسوف أختفى فى باريس إلى أن أغادرها إلى بقعة مجهولة . إنى أحمل على كاهلى الصليب الذى تركته فى حديقة مونصو . لكل منا نصيبه. ولكننى لن أقتل نفسى ، لأنى لا أزال مؤمنة . لقد أحببتنى وحدثتك نفسك بالرقاد فى فراشى خليلا وأنت لا تعلم أنك أخى . لعلني أخطأت إذ لم أصارحك فى الساعة الأولى . ولكنى خفت عليك أثر الصدمة ، وأنت ضعيف محتاج إلى العناية والهدوء . إننى فتية صحيحة البدن وسأجد رزقي كذلك العصفور الذى وصفته وأنت على شفا الهاوية . لقد كان نبش عشى نتيجة إنقاذك ، فهل أندم أن كنت سبب نجاتك ؟ سوف ألقط حَبي ، وأحاول أن أبنى عشى دون أن يصيدنى صائد ماكر . سأغرد باكية وأذرف دموعاً ساخنة على فراقنا المرة بعد المرة . إصفح عنى واغفر لى ، فانى لم أقصد إلى تدنيس شرفك عامدة ،

أتذكر سياحتنا فى الجبل والبحيرة ؟ . كنت وأنا أتعهدك أذكرها دائماً ، وأبكى أثناء نومك ، وطالما هممت أن أوقظك قائلة : جورج ! أخى الصغير ... تلك لورا التى تكلمك ... ولكن شجاعتى كانت تخونني ...

وفى تلك اللحظة فتح الباب وخرجت سيدة مكتهلة ، وهي مالكة الغرفة المهجورة وصاحبة الدار كلها وقالت :

— سيدى ! إن الآنسة قد سافرت ولم تترك عنوانها ، ولم تذكر شيئاً يهتدى به إليها

— حسن ، لقد قرأت خطابها ، تفضلى بقبول هديتها إليك فقد أوصتنى أن أشكرك على ما رأت من لطفك أثناء إقامتها لديك ...

فابتسمت المرأة وقالت : تفضل واسترح قليلا من عناء المشتري والمساومة . فدخل يمسح عرقه ، وأخذت المرأة الأزهار والهدايا وصفتها فى أماكن لائقة دون أن تمس غلافها ثم سألته : هل كنتما عازمين على الزواج ؟

أجاب : كلا ، أى زواج ؟ أفى بلاد الزنوج نحن أم فى الهند الصينية ، أم أن الحضارة تتقهقر ؟

— ولم ياولدى ألا يتزوج عن عشق غير الزنوج وهند الصين ؟

— إنها شقيقتى ياسيدتى من أبى وأمى

— شقيقتك ؟ آه لقد فهمت فمعذرة

ولم تركتك على غير صورة ، كأنها تفر من ضيغم ، وأراك مهذباً شهماً لا تنكر قرابتها ، ولا تأخذها بلاءمة

— وكيف أنكر قرابتها وقد أنقذت حياتى من موت مؤكد ؟ ولكنى فى الحق لم أعرفها للوهلة الأولى وإن هي عرفتني

— لعلها خشيت عتاباً أو ملاماً ..

— وأي عتاب يكون بين شقيقين فرق بينهما الدهر ثم اجتمعا على إحسان أحدهما إلى الآخر إحساناً لا ينسى .

— إذاً ما يسمي فى لغة العصر الحديث « سوء تفاهم » وإنه للفظ حلال للعقد .

— وأين لى أن أجدها لأركع تحت قدميها ، شاكراً مستغفراً ؟ ألا تعلمين ياسيدتى ، بالله عليك ، مظنة من مظان وجودها ؟ أحب أن أودعها ولو شاءت مفارقتى ، مستحيل أن أفقدها هكذا .

فأغرورقت عينا المجوز بالدموع وقالت :

— ربما ! ثم خرجت من الغرفة فأطرق جورج ملياً ثم سمع وقع أقدام فرفع رأسه ليرى من المقبل عليه .

فاذا بلورا نفسها خاشعة مطأطأة الرأس ، فأقبل عليها يقبلها ويحتضنها ويبشرها بالسعادة بشرط ألا يذكر أحدهما كلمة عن الماضى القريب أو البعيد ، فما جمعهما الله لتفرق بينهما الذكرى . فابتهجت ووافقت ودخلت المجوز تبكى من الفرح وقد جمعت شملهما بعد أن ظنا أن لا تلاق بعد الساعة ، وقالت وهى تنشج بدموعها : أنا التى استبقيتها إلى أن تعود ، وقلت لها : انتظرى حتى أمتحنه ، فان جفا أوقسا ، فمع السلامة ، وإن حنّ ولان فهو بك أولى وأنتما بمالكما أحق ، ووعدتنى أن تبقى الغرفة لها مادامت بباريس

— وأنت أيضاً لنا ، فلن نفارقك بعد اليوم فقد كان بيتك دار النعمة والبركة ، والرجاء بعد القنوط ، ولا معنى للحياة مع اليأس

محمد لطفى جمعه

وقائع مارتان وليريك

للكاتب الشهير ولبرسكوت
بقلم الأستاذ محمد كامل حجاج

إن الوحشة التي سادت غابات هرتس بألمانيا ولا سيما الجبال المسماة بلوكبرج أويروكنبرج قد جعلت من هذه الأخيرة مسرحاً ممتازاً للأقاصيص التي تسرد فيها أخبار السحرة والجن والشياطين والخيالات . وأغلب سكان هاته المقاطعة حطابون أو عمال في المناجم . وهذا النوع من المعيشة قد جعلهم يعتقدون بالخرافات ويعزون الحوادث الطبيعية إلى السحر والجن والشياطين

ومن الحكايات التي ذاعت في هذه البلاد المتوحشة والتي يشاع فيها أن غابة هرمس يسكنها شيطان ويصورونه بشكل عملاق آدمي متوج الرأس وبوسطه حزام من أوراق البلوط وبيده شجرة صنوبر قلعت من الأرض بجذورها . ويزعم كثير من الناس أنهم شاهدوه مراراً في أطراف واد صغير يتنزه فيه أو في سفح الجبل . وهذا الزعم مقبول عندهم ولكن العصر الحاضر لا يقبله ويعزوه إلى خداع النظر

وكانوا يعتقدون في العصور القديمة أن هذا الشيطان كان يتاجر مع بني الانسان . ويقال في تقاليد تلك البلاد السابقة إنه كان يتدخل في أعمال الناس فتقوده أهواؤه تارة إلى الخير وطوراً إلى الشر ، كما أنه لوحظ أن منحه تكون مع الشر مشئومة

وكان القسس يشيرون على أتباعهم وهم يعظونهم بأن يتجنبوا الاختلاط بشيطان هرتس بشكل مباشر أو غير مباشر

إن المشاهدين والممثلين في المسرح الآني كانوا ثلاثة فتيان يحتطبون ويحولون أحطابهم إلى فحم ، وكانوا عائدين إلى كوخهم ، وكان حديثهم دائراً حول شيطان هرتس وعن الراهب الذي كان يلعن هذا الشيطان الوديع المسالم فرجمه الأهلون بالحصى والحجارة قائلين له : إذهب لشأنك لتلعن الشياطين في بلاد غير بلادنا ، ثم جرهم الحديث إلى أن الذين يربطون علاقاتهم بهذا الشيطان تكون آخرتهم مشؤومة واستشهدوا بجواد السباق الأسود الذي منحه شيطان هرتس إلى الفارس أكبرت دورابتوالد والذي بفضله حاز قصب السبق في سباق يريم ولكنه سقط في الهاوية بسيده ولم يعلم أحد بخبرهما إلى الآن

كان مارتان أصغر إخوته الحطابين الذين سبق ذكرهم يخالف أخويه الأكبر والأوسط في الاعتقاد بالشيطان ، وكان جسوراً جريئاً ماهراً في جميع الأعمال التي يقوم بها الجبليون وكان مقداماً في كل عمل يطلب منه أعمال المجازفة أو القوة وكان يضحك من حياء أخويه ويتسلق الجبال بكل سهولة وخفة .

قال لأخويه وهو يحاورهما : لا تقصا على هذه الخرافات فان الشيطان طيب وهو يعيش بيننا كأحد الفلاحين ، وكان يتسلق الصخور ويجوب الجبال كأنه يصطاد أو يرعى المعز ، ولما كان يحب غابات هرتس ومناظرها الطبيعية الخلابة فلا يتأتى أن يكون عديم الاهتمام بحفظ ساكنيها .

وحينما يكون خبيثاً شقياً متلكماً فكيف يكون تصرفه مع من ينتفعون بمنحه دون أن يتعهدوا له بأى تعهد ؟ وحينما تورد فحمك فى المسبك لديره بليز ذاك الشيخ الذى لايفوه لسانه إلا بالتجديف ، أفلا تفضل أن تأخذ منه نقودك ولا تأخذها من القسيس ؟ فليست إذن منح هـذا الشيطان التى تعرضك للأخطار ولكن سوء استعمالها والتصرف فيها . أما أنا فانه إن ظهر لى فى هذه الساعة سواء أكان باسماً أو عابساً فأننى أستمر فى حفر الأرض قبل أن يبرح مكانه ، وسأحسن التصرف فى نعمته التى يمن بها على وآمل أن أكون فى حماية ورعاية فرد أقوى منه .

فأجابه الأخ الأكبر بأن المتاع الذى ينال بطريق غير مشروع يندر أن يتصرف فيه صاحبه على أحسن وأفضل وجه . فرد عليه مارتان : إننى إذا امتلكت جميع كنوز هرتس فان ذلك لايغير شيئاً في طباعى وصفاتى .

فقال له ماكس : يلزمك أن تتكلم باحتراس وتحفظ حينما تخوض فى مثل هذا الموضوع . وأراد أن يحول الحديث إلى موضوع آخر وانتقل إلى صيد الدياب الذى سيشرع فيه . وقد استمر بينهم الحديث إلى أن وصلوا إلى كوخهم القائم على سفح أكمة بواد ضيق بجبال بروكنبرج ، ثم حلوا محل أختهم فى مراقبة تحضير الفحم وكانوا يتناوبون مراقبة الفحم فينام اثنان ويراقب الثالث .

كانت نوبة ماكس والديك فسهر الساعتين الأوليين وقد دهش حينما شاهد على أكمة أمام كوخهم وحولها أشخاصاً كثيرين يدورون وتصدر منهم إشارات غريبة . ففكر فى بادىء الأمر أن يدعو أخويه ولكنه رأى أن أخاه الصغير يخالفهم فى الرأى وأنه لايستطيع أن يوقظ جورج دون أن يقلق مارتان ، ثم ظن أن مارآه ربما كان نتيجة وهم أوجده الحديث الذى دار بينهم عن الشيطان . وقد ظن أنه لا يستطيع أن يعمل شيئاً أحسن من الصلاة وأن ينتظر بقلق وفزع هذه المشاهدة . وبعد ما استمرت النار وتوهجت ثم انطفأت شيئاً فشيئاً وخيم الظلام لبث مضطرباً مدة نوبته مما شاهده .

حل جورج محل ماكس الذى ذهب لينام بدوره فشاهد النار التى رآها أخوه ، وكان حول النيران أشخاص تصدر منهم إشارات كأنهم يقيمون حفلة رمزية

ولو أن جورج كان أشد فطنة من أخيه الأكبر ولكنه كان جريئاً مقداماً ، وقد صمم أن يقترب من هذه المجيبة ليختبرها فاجتاز قناة صغيرة تجرى فى هـذا الوادى واقترب من النار حتى أمسى على رمية سهم منها فوجدها متأججة كما كانت

وكانت الأشخاص المحيطون بها أشبه بالأشباح التى نراها فى أحلامنا ولأول وهلة تحقق أن هؤلاء ليسوا من أهل الدنيا وقد رأى بينهم عملاقاً هائلاً بيده شجرة صنوبر قلعت بجذورها كان يستعين بها العملاق فى إسعار النار ولم يكن عليه من الملابس غير تاج وحزام من أوراق البلوط . ولما عرف جورج شيطان هرتس هلع فؤاده لأنه كان طبق الصورة التى كان يتحدث بها الرعاة والصيادون الذين رآهم يجولون فى الجبال فرجع مسرعا فى الهرب وبعد قليل من التفكير وخ نفسه على هذا الجبن وقرأ مزمارا من الزبور : « فلتبارك جميع الأمم الآله »

واتخذ طريق الأكمة حيث شاهد النار ولكنه دهش حينما لم يجد للنار أثراً

أضاء الفجر بأشعته الضئيلة ذاك الوادى ، ولاحظ جورج أن جبينه ينضح عرقاً ، بارداً وقف شعر رأسه من الفزع ووصل وهو يرتعد إلى المكان الذى شاهد فيه النار وكان به شجرة بلوط كبيرة كانت تظهر كأنها وسط النيران فلم يجد أثر أقدام، ولاحظ أن الكلأ والأزهار البرية لم تمس ولم يهشم منها شئ وكانت أوراق البلوط مخضلة بقطر الندى

رجع إلى كوخه وهو يرتعد من الهول وفكر مثل أخيه الأكبر وصمم ألا يتفوه بشئ مما رآه خوفا من أن يثير فيه تطاما تصحبه المجازفة

جاء موعد سهرة مارتان عند صياح الديك مؤذنا برحيل الليل واقتراب الفجر . اختبر استعار التنور الذى يجهز فوقه الفحم فوجده ضعيفا لأن مشاهدة جورج للشيطان وما حاق به من الهلع أنسياه واجبه من مراقبة النيران فأراد أن ينادى أخويه ولكنه رآهما فى نوم عميق فعالج النار وحده ولكن الأخشاب التى استعملها كانت رطبة خضراء وانتهى الأمر بأن خبت النيران . طفق يعدو باحثا عن حطب جاف ولما رجع وجدها قد انطفأت وكان هذا حادثا جللا يفقدهم عمل يوم . أخذ يقدح زنده فلم يفلح لأنه تشبع بالرطوبة . فلم يجد مناصا من استدعاء أخويه ولح على حين غفلة ضوءا مفاجئاً فى الكوخ ففتح الباب فاذا هى الظاهرة العجيبة التى أذهلت أخويه ماكس وجورج

ظن فى بادئ الأمر أن الموهلر هاوسرس الذين كانوا معهم فى شجار مستمر لما انتابهم من غيرة الصناعة قد أغاروا على أرضهم فى الغابة ليسرقوا ما وصلت إليه أيديهم ، ففكر فى إيقاظ أخويه ليؤدبوا هؤلاء الجريئين ولكنه حينما شاهد إشارات الملتفين حول النار كأنهم يعملون عملا غير فكره واستنتج أن هذه حادثة غير حقيقية — مهما كانوا رجالا أو شياطين ومهما كان شغلهم سأذهب إليهم أسألهم جذوة من النار أضرم بها التنور . ورفض أن يوقظ أخويه وخشى أن يحول استحياء أخويه دون مقصده ثم تناول رمحاً مما يصطادون به الدببة وذهب وحده ليجعل حداً لهذه الواقعة

سار بشجاعة تفوق شجاعة أخيه جورج واجتاز القناة ثم صعد الأكمة وتقدم صوب هذه الجماعة وعرف أن الرجل الذى يتزعمها ليس إلا شيطان هرتس فأصابته رعدة كانت الأولى فى حياته ولكنه تذكر أنه طالما تمنى هذه الفرصة السانحة فلذلك تجددت شجاعته، فتقدم نحو النيران بثبات وجرأة فظهر له أن هؤلاء ظهرت عليهم ملامح غريبة خارقة للعادة وقابلوه بضحك متواصل وقع فى أذنه مزعجاً عنيفاً

— من أنت ؟ سأله السملاق وقد ظهرت على سحنته الدميمة ملامح الغضب والشدة

— أنا مارتان ولديك الفحام، وقد أجاب بكل جرأة وبسالة ، ومن أنت يا هذا ؟

— أنا ملك الجبال والمناجم . وكيف تجاسرت على تعكير أسرارى ؟

— قد أتيت لأطلب جذوة نار لأوقد بها تنورى ثم سأله بكل جرأة : وما هى الأسرار التى تحتفل بها هنا ؟

— فرد عليه الشيطان مازحاً : إننا نحتفل بقران هرمس بالتنين الأسود ، فهيا خذ النار واذهب لشأنك فما من مخلوق يطيل فينا النظر إلا ويهلك

أنشب مارتان سنان رمحه فى قطعة كبيرة من الخشب ملتهبة وعاد بها إلى كوخه وسط ضحك مستمر وقهقهة عالية دوى صوتها فى الوادى ثم وضعها وسط الأحطاب الجافة ليوقد تنوره، ورغماً من جهده المتواصل وكيره الكبير انطفأت الخشبة المستمرة . ثم التفت إلى النار المعهودة فرآها مازالت مستمرة فوق الأكمة فظن أن الشيطان أراد أن يلعب معه دوراً فعاودته جرأته وصمم أن يعود إلى الأكمة ليأخذ جذوة أخرى فأخذها دون أن يصادف أية معارضة ولكنه لم يفلح فى إشعالها كالمرة الأولى وأراد أن يجرب المرة الثالثة فأخذ قطعة كبيرة وذهب فسمع الصوت يخاطبه : حذار أن تعود للمرة الرابعة

حاول أن يسعر النار وبذل كل جهده ولكنه أخفق . يئس وقطع الأمل وارتمى على سريره الذى اتخذه من أوراق الأشجار وقرر أن ينتظر إلى الصباح ليطلع أخويه على جميع ما حصل له فنام من التعب واضطراب فكره . استيقظ فى الصباح على أصوات الفرح والدهش وصراخ أخويه فانهما حينما شاهدا التنور خامداً أخذا يخرجان الخشب منه ويعالجان إيقاده فوجدا فى الرماد ثلاث سبائك ضخمة فعرفا فى الحال أنها من الذهب الخالص

ولما حدثهما مارتان عن الكيفية التى بها أصبحت هذه الثروة فى حوزتهم هدأت أعصابهم لأن ما رآه فيما مضى جعلهما يثقان بحديث أخيهما ولا يشكان فيه ، وقد سولت لهما نفساهما أن يشاطرا أخاهما هذه الثروة

اعتبر مارتان نفسه رئيس الأسرة واشترى ضياعاً وغابات وبنى قصراً عظيما وحصل على براءات الشرف ومنح نفس الامتيازات التى تمنح للبارونات العظام الذين فى جواره . ولشجاعته فى الحرب وخصومة أعدائه لم ينل منه أعداؤه الذين كانوا يحسدونه على علوه الفجائى وغروره العاتى . لم يلبث مارتان ولديك أن أظهر قدرة جديدة تدل على أن قليلاً من الناس من ينظر فى عواقب ما تنتجه الثروة المفاجئة ، إذ ظهرت عيوبه التى أخفاها الفقر ، ففسدت أخلاقه ، وأصبحت الأهواء تجر بعضها ، فأيقظ شيطان البخل شيطان الكبرياء ، واستعان الاضطهاد بالقسوة والوحشية

استمر مارتان فى غيه وجرأته فحقد عليه الناس من سراة وفقراء لكونهم رأوا رجلا سافلا علا فجأة ونفذ فيهم قوانين الاقطاعيات بقسوة همجية

انكشفت عيوبه وأصبح ممقوتاً حتى من رجال الدين الذين كانوا يلقبونه بشريك الشياطين والساحر لأن ثروته تضخمت بأساليب جهنمية ولم يمنح جزءاً صغيراً منها إلى الكنيسة حتى يبارك فى باقى ثروته . وقد حصلت له حادثة كانت سبباً فى سقوطه

أقام دوق برونسويك ، وهو الحاكم ، برجاساً ودعا إليه نبلاء الألمان ، وكان مارتان ولديك متقلداً أفخر الأسلحة مصحوباً بأخويه متبوعاً بحاشية كبيرة العدد والعدد . وقد ساقته وقاحته لأن يظاهر وسط الفرسان النبلاء وأن يطلب منهم أن يدخل فى المضمار ، فارتفع ألف صوت قائلين : لا نستطيع أن نتحمل اختلاط لحام بالفرسان النبلاء فى حلبة ألعاب الفروسية ؛ فاغتاظ مارتان وغاب صوابه واستل سيفه وضرب الفارس الذى عارضه فى دخوله إلى المضمار، وشهر مائة فارس سيوفهم فى الحال لمعاقبة هذه الجريمة ، فدافع ولديك دفاع الأسود ثم قبض عليه فى النهاية وحوكم أمام ماريشالات البرجاس ،

وحكم عليه بقطع يمينه وتجريده من ألقاب النبلاء وأن يطرد من المدينة

وحينما جرد من سلاحه ونفذ فيه الحكم ترك للرعاع فاتبعوا هذه الضحية البائسة التي جنى عليها الطمع وطفقوا يسبونه سائحين : « أيها الساحر الظالم » وانهالوا عليه بأفظع الشتائم وأشنع الاهانات فتركته حاشيته وولت الأدبار . ثم أقبل أخواه وخلصاه من أيدي الغوغاء، ولما شفوا غليل انتقامهم منه تركوه حينما رأوه مشرفاً على الاغماء من فقد دمه وتعذيبه ، وقد قسا عليه أعداؤه حتى أنهم لم يسمحوا بنقله إلا على عربة فحم من التي كان يشتغل عليها حينما كان فحاما فوضعه أخواه على حزمة من قش فوق العربة وأرادا أن ينقلاه إلى مكان أمين قبل أن يريحه الموت من آلامه

ولما سارت أسرة ولديك بهذه الطريقة المحزنة واقتربوا من بلدهم الأصلية رأوا عن بعد في المضيق الواقع بين الجبال شخصاً يتقدم نحوهم ظنوه في بادئ الأمر شيخاً هماً ولكنه كلما كان يقترب ظهرت قامته الهائلة ثم اختفت عباءته من كتفيه واستحالت عصاه إلى شجرة صنوبر قلعت بجذورها ، ثم ظهر أمام أعينهم شيطان هرتس فارتعدوا من الهول ، وحينما وقف أمام العربة التي حملوا عليها أخاهما ظهرت على ملامحه هيأة أمير محتقر ، ثم قال بخبث ودهاء لمارتان : « كيف وجدت النار التي أشعلها خبثي ؟ » وما أتم قوله حتى جمد الدم في عروقهما من الخوف ولكن الجريح عاوده نشاطه وقوته ونهض ولوح بقبضة يده الباقية مهدداً الشيطان ؛ وما كان من هذا اللعين إلا أن قهقه بتهكم وخبث ، ثم اختفى عن العيون

تملك الفزع الأخوين ، ثم اتجها نحو دير قائم في غابة صنوبر على قارعة الطريق ، فتلقاهما راهب بالترحاب وكان حافي القدم طويل الذقن ، ولم يعش مارتان غير الوقت اللازم لاعترافه لأنه لم يعترف منذ أقبلت عليه النعم الفجائية مع أن مارتان كان يساعد الغوغاء على رجم هذا الراهب المسكين وطرده من قرية مور حنبرودت قبل هذا التاريخ بثلاثة أعوام . ويظن أن هذه الأعوام التي أقبلت فيها السعادة بكل تسامح كان لها ارتباط خفي بالرحلات الثلاث التي ذهب إليها مارتان ليرى النار الغريبة

ثم دفن مارتان في الدير وترهب أخواه إلى أن وافاهما الأجل المحتوم ، وبقيت أرض مارتان خلاء ولم يقبل أن يمسها أحد إلى أن وضع يده عليها الامبراطور ولم يقترب الحطابون ولا عمال المناجم من أطلال القصر معتقدين أنه أصبح مأوى للشياطين

وقد جعل مارتان ولديك من نفسه مثالاً للمصائب التي يستهدف لها كل من حصل على ثروة بطريقة غير مشروعة ثم أساء التصرف فيها

محمد كامل صجاع

وحي بغداد

صور وجدانية وأدبية واجتماعية

بقلم الدكتور زكي مبارك

يطلب من المكاتب الشهيرة

وثمن النسخة عشرة قروش

انتقام رهيب

للكاتب الفرنسي أونوريه دي بلزاك

بقلم الأديب عبد الوهاب مصطفى بحلاق

على بعد مائة متر تقريباً من بلدة فندوم على حدود إقليم اللوار توجد دار كبيرة محاطة بأسوار عالية وقد قامت وحدها بعيدة عن جميع الدور الأخرى وتتبعها حديقة واسعة جفت الآن نباتاتها وغطى التراب دروبها وزاد منظرها من سمة القدم والوحشة البادية على الدار، ولم يكن يفتح لها باب ولا يطرقها طارق، وقد علمت أنها قد أغلقت هكذا وخلت من السكان منذ عشر سنين، وإنما أحدث صبية الناحية فتحات في السور ترى منها جوانب من داخل الدار

وقد قصت على صاحبة المنزل الذي نزلته قصة لا شك أنها سبق أن حكتها لسواي من النزلاء قالت:

« حين أرسل الأمبراطور أسرى الحرب من الاسبانيين وغيرهم إلى هذه البلدة أنزلت الحكومة عندي واحداً منهم. وقد أخذت عليه كلمة الشرف ألا يفر، ومع ذلك كان عليه أن يقدم نفسه كل يوم إلى وكيل المحافظة وكان من أشراف الاسبانيين واسمه ينتهي بأوس وديا، وهو يشابه كلمتي بورجوس دي فيريديا، واسمه الصحيح مدون في دفاتري، ولم يكن طويل القامة، وكانت يداه رقيقتين يعنى بهما ويخصهما بفرشاة كأنه سيدة حسناء. وكانت ثيابه أحسن ما مر على وقد تعلم أني غسلت ثياب أمراء وأشراف لا يحصى لهم عدد. ولم يكن ذلك الشاب كثير الأكل، وقد أعجبني منه حسن أدبه ووداعته، وملت إليه كثيراً وإن يكن لا يكاد يفتح فاه للكلام أكثر من بضع مرات في اليوم، وكان من المحال أن يفتح أحد باب الحديث والسمر معه، وإذا كلمه أحد لا يجيب، وكان يتلو صلواته كل يوم كما ينبغي ويذهب إلى الكنيسة بانتظام، وفي المساء كان يمشي في الجبال وبين خرائب القصور، ولم يكن له من تسلية سوى ذلك وقد علمت أن اسبانيا مملوءة بالجبال والدمن فلا عجب في أن ينشدها هنا. وكان منذ بدء أسره قد اعتاد أن يرجع إلى المنزل في ساعة متأخرة من الليل ولذا لم أكن أقلق عليه إذا غاب، وكان يأخذ معه مفتاح الباب فلا يحس به أحد حين عودته. ثم أخبرني أحد الخدم أنه رآه يسبح في النهر في ناحية منعزلة فبادرت إلى تحذيره من مواطن الخطر بالنهر حتى لا يغرق. ولكن جاء يوم لم يعد فيه أصلاً، ثم انقضت أيام أخرى دون أن يعود وقد بحث زوجي عنه طويلاً، وكان وقتئذ لم يمت بعد فعثر على ثيابه وراء حجر كبير عند أعالي النهر، وأيقنا أنه غرق. ولما فتحنا درجه في الغرفة الخاصة به وجدنا خمسين قطعة ذهبية اسبانية وحلياً من الألماس ومعها مكتوب منه يوصي بها لنا في حالة عدم عودته، ولم يكن أحد قد رأى زوجي وهو يرجع بالثياب لأنه كان قد ذهب في ساعة مبكرة قبل الفجر للبحث عن الشريف الاسباني ولذا حرقنا تلك الثياب وأخذنا النقود والحلي تبعاً لتلك الوصية وأعلنا المحافظة أن الأسير هرب وقد أرسل وكيل المحافظة جميع الشرطة للبحث عنه ومطاردته، ولكنهم بالطبع

لم يجدوه ، وكان المرحوم زوجي يعتقد أنه انتحر غرقاً . ولكني لا أعتقد ذلك بل إني أرجح أن يكون لذلك الشاب المسكين علاقة بقصة مدام دي ميريه فقد أخبرتني روزالي أن الصليب الذي كانت سيدتها تلك تحتفظ به وتحرص عليه كان من الأبنوس والفضة وهو الذي دفن معها طبقاً لوصيتها وقد جاء الشاب الاسباني إلينا ومعه أيضاً صليب من الأبنوس والفضة ولكني لم أره معه بعد ذلك. والآن ألا تعتقد أن لي الحق في أن أحتفظ بالنقود والحلي التي تركها لنا ذلك الشاب الاسباني ؟ »

فقلت لها :

— بالتأكيد . ولكن ألم تسألي روزالي عن معلوماتها بهذا الصدد ؟

— سألتها ولكنها تكتم كل ماتعلمه ويبدو لي أنها تعرف أشياء ولكنها لا تقولها . ثم تركتني صاحبة المنزل ومكثت أفكر فيما قالت لي وقد دلني إلهام خفي على أن بين هذا الحديث وتلك الدار المهجورة صلة متينة، ولذا عزمت أن أكتشف ذلك السر الذي تكتمه روزالي فقد كانت وصيفة لمدام دي ميريه زوجة صاحب الدار المهجورة قبل أن تشتغل خادمة بالمنزل فقلت لها ذات مساء :

— روزالي !

— نعم

— ألست متزوجة ؟

فضحكت وأجابت :

— في استطاعتي أن أجد كثيراً من الرجال إذا خطر لي أن أشقى بالزواج

— إنك جميلة ذكية ومثلك لاينقصها المحبون، ولكن خبريني ياروزالي لماذا اشتغلت بهذا المنزل بعد أن تركت خدمة مدام دي ميريه ؟ ألم تخلف لك تلك السيدة شيئاً تعيشين به ؟

— بلى . ولكن عملي هنا لا يضايقني ألبتة

ففهمت أنها لاتريد الكلام عن سيدتها السابقة ومن ثم زاد اهتمامي بكشف ذلك السر الخفي . وفي صباح الغد قلت لها دون مقدمة :

— نبئيني بكل ماتعرفينه عن مدام دي ميريه

— لا تسألني مثل هذا السؤال . .

ولكني أصررت على سؤالي وكنت قد كسبت ودها فقالت لي :

— حسن ، مادمت تلح في معرفة القصة فاني سأقصها عليك ولكن ينبغي لك أن تعدني بأن تكتمها عن جميع الناس

— أجل ، أعدك بذلك بشرف اللصوص وهم أكثر الناس محافظة على الوعود . ولو أني أردت هنا أن أبين فصاحتها وهي تقص علي قصة مدام دي ميريه لاحتجت إلى مجلد كامل ولذا سألخصها هنا بايجاز :

« كانت الغرفة الخاصة بمدام دي ميريه في دار زوجها الكونت بالطبقة السفلى ويتبعها دولاب كبير مبني في الجدار لحفظ ثيابها ، وقبل ثلاثة أشهر من ذلك الحادث الرهيب الذي أدى إلى إغلاق الدار وهجرها كانت مدام دي ميريه منحرفة الصحة فتركها زوجها وحدها في جناحها الخاص بها واحتل جناحاً آخر في الطبقة العليا. واتفق أنه عاد من ناديه ليلاً بعد ساعتين من موعده المعتاد وكانت زوجه تحسبه في البيت راقداً في فراشه ، ولكن الكونت كان يتحدث مع أعضاء النادي في الشؤون السياسية وقضى وقتاً طويلا في البلياردو وقد خسر فيه أربعين فرنكا ، وهو مبلغ كبير بالنسبة لبلدة فندوم حيث يدخر الأهالي نقودهم وحيث تقل الملاهي ووجوه

الانفاق ، وكان الكونت قد اعتاد فى المدة الأخيرة أن يسأل روزالى عند عودته ليلا عما إذا كانت زوجه قد آوت إلى فراشها فكان جوابها دائماً بالايجاب فيذهب الكونت توآ إلى مخدعه بادى الرضا عن نفسه ، ولكنه فى تلك الليلة خطر له أن يقصد إلى مخدع زوجه ليخبرها بما منى به من الخسارة فى لعب البليارد ويلتمس منها العزاء ، وكان قد رآها عند تناول العشاء فى أحسن ثيابها وفتنتها قبل ذهابه إلى النادى فخطر له أنها قد شفيت من مرضها وأن دور النقه قد زادها جمالا ، وكان على عادة الأزواج بطيئاً فى إدراك ذلك

وبدلا من أن ينادى روزالى للسؤال عن زوجه ذهب إلى مخدعها على ضوء المصباح الذى وضعه على السلم وسمع وقع خطواته فى الردهة ، وفى اللحظة التى أدار فيها أكرة الباب خيل إليه أنه يسمع صوت باب الدولاب الداخلى وهو يغلق ، ولكنه لما دخل الغرفة وجد مدام دى ميريه وحدها أمام المرآة وقد خطر له أولا أن روزالى بداخل الدولاب ولكنه طرد هذا الخاطر وحل محله ارتياب شديد ، ونظر إلى زوجه فرأى عليها دلائل القلق وقالت له بصوتها الرقيق البادى التأثر :

— « لقد تأخرت الليلة ! »

فلم يجب لأن روزالى دخلت فى تلك اللحظة ، وأخذ يذرع الغرفة ذهابا وجيئة وهو مطبق الذراعين وقد ثارت بنفسه عاصفة كان يكظمها جهد المستطاع ، وبينما كانت روزالى تساعدها على خلع ثيابها قالت لزوجها :

— « أسمعت أخباراً سيئة أم أن بك مرضاً ؟ »

فظل ساكتا

وعندئذ أمرت روزالى بالانصراف

وقد دلها منظر زوجها على شر مستطير ، فلما ذهبت روزالى وهى فى الحقيقة لم تذهب بعيداً لأنها وقفت فى الردهة تستمع موقف الكونت أمام زوجه . وقال لها بجفاء :

— مدام ! يوجد أحد فى مخدعك ؟

— كلا ياسيدي !

ولم يصدقها ، ولكنه رآها فى تلك اللحظة أبدع وأطهر ما تكون ، وقام ليفتح باب الدولاب ولكنها تناولت يده وقالت بصوت يدل على التأثر والأسف :

— إذا لم تجد أحدا بالداخل فلا تنس أن ذلك يكون آخر العهد بيننا

وكان اطمئنانها وتأثرها باعثين له على الندم لارتيابه بها فقال لها :

— كلا .. لن أدخل ، فسواء كان هذا أو ذاك فانه مؤد إلى افتراقنا . اسمعى إنى أعرف أنك أمينة طاهرة وأن حياتك حياة قديسة ولن ترتكبى ذنباً خالداً لانقاذ نفسك

فنظرت إليه نظرة التساؤل فاستطرد يقول :

— تناولى هذا الصليب وأقسمى لى أمام الله أنه لا يوجد أحد مختبىء هناك ؛ وعندئذ أصدقك ولا أفتح الباب

فأمسكت مدام دى ميريه بالصليب وقالت :

— أقسم

— ارفعى صوتك وقولى : « أقسم أمام الله أنه لا يوجد أحد مختبىء بهذا الدولاب

— فكررت هذا القسم بهدوء

— حسن

وبعد أن سكت برهة أمسك بصليب من الأبنوس مطعم بالفضة وقال :

— إنى لم أر هذه اللعبة الجميلة من قبل

— لقد وجدتها فى محل دوفينيه وكان قد اشتراها من راهب أسبانى حين مر الأسرى

الاسبانيون ببلدة فندوم فى العام الماضى

فلم يقل الكونت شيئاً وأعاد الصليب إلى موضعه ودق الجرس فجاءت روزالى مسرعة فقال لها :

— اسمعى ، إنى أعلم أن البناء جورنفلو يتمنى الزواج بك وأنك تتمنينه زوجاً لك ولكن الفقر هو العائق الوحيد ، فهيا أسرعى وائتينى به ومعه أدواته وعدده وليبرهن على براعته فى البناء. وحذار أن توقظى أى أحد فى الدار ، وسأكافئه بما يغنيه وعليك ألا تحدثى أى صوت وإلا ...

وهنا عبس فبانت كل قسوته ، ولما ذهبت ناداها وقال :

— إليك مفتاحى السرى

ثم نادي جان الحوذى وكان فى تلك الساعة يلعب بالورق مع رفاقه الخدم فأمره الكونت بأن يأوى الجميع إلى فراشهم ... ثم قال لجان همساً :

— حين ينام الجميع تعال وأخبرنى

ولما انتهى من الادلاء بهذه الأوامر عاد إلي زوجه فأخذ يحدثها عن خسارته فى لعب البلياردو وعن أمور أخري عادية ، حتى إذا عادت روزالى وجدتهما جالسين معا بخير حال

وكان الكونت قد أصلح فى العهد الأخير جميع سقوف الغرف التى بالطبقة السفلى وجاء لهذا الغرض بمقدار وافر من الجص من باريس وقد أمل أن يبيع الباقي منه بعد سد حاجة الترميمات فيجد له سعراً عالياً فى البلدة ، وقد أوحى إليه ذلك بفكرة فى هذه اللحظة وبعد حين جاءت روزالى وقالت للكونت بصوت خافت :

— سيدى ، لقد جاء جورنفلو

فصاح بها قائلاً :

— أدخليه إلى هنا

ولما رأت مدام دى ميريه ذلك البناء شحب لون وجهها ثم قال له الكونت :

— يا جورنفلو ، إذهب وائت بطوب وافر يكفى لسد باب هذا الدولاب ، فاذا انتهيت من ذلك طليت البناء بالجص

ثم قال لروزالى وجورنفلو بعد أن انتحى بهما ناحية :

— إسمع يا جورنفلو ستنام هذه الليلة ، وفى الغد أعطيك جواز سفر إلى بلدة في الخارج أدلك عليها ، وستمكث عشر سنين بهذه البلدة بشرط أن تكون فى نفس المملكة ، وستسافر أولاً إلى باريس حيث تنتظر قدومى ، وسأعطيك أولاً ستة آلاف فرنك لأجل سفرك ، وفى باريس أعطيك عهداً على بستة آلاف أخرى سوف تتسلمها عند عودتك بعد انقضاء السنوات العشر بشرط أن تكون قد نفذت كل شروطى ، وهذا هو ثمن كتمانك لما تعمله هذه الليلة. أما أنت يا روزالى فانى سأعطيك يوم زواجك عشرة آلاف فرنك بشرط أن تتزوجى بجورنفلو ، ولكن إذا كنت تريدين الزواج فيجب أن تمسكى لسانك وإلا فلا زواج ولا صداق !

وفى تلك اللحظة نادت مدام دى ميريه وصيفتها لتصلح لها شعرها

وكان الكونت يروح ويجيء وهو يراقب زوجه ووصيفتها والبناء ، ولكن دون أن يبدى شيئاً من الهواجس التى تختلج فى نفسه ... وانتهزت مدام دى ميريه فرصة اشتغال البناء بتفريغ الطوب ووجود الكونت فى الطرف الآخر من الغرفة فقالت لروزالى :

— لك منى ألف فرنك كل سنة إذا قلت لجورنفلو سراً أن يترك طوباً مفككاً فى أسفل البناء

ثم قالت بصوت مرتفع :

— إذهبى وساعديه

وكان الكونت ومدام دى ميريه ساكتين طوال الوقت بينما أخذ جورنفلو يسد الباب بالبناء ، وقد أراد الكونت ذلك الصمت حتى لا يعطي زوجه فرصة لأن تقول كلمة ذات معنيين ؛ أما هي فقد رأت أن تسكت إما بدافع الكبرياء أو بمد النظر

ولما تم بناء نصف الحائط انتهز البناء الماكر فرصة عدم التفات الكونت فضرب بأدانه على لوح زجاج بداخل الباب الذى يسده بالبناء وقصده من ذلك أن يخبر مدام دي ميريه بأن وصيفتها أخبرته وأنه موافق عليه وفى تلك اللحظة بدا للجميع — ماعدا الكونت الذى كان وجهه إلى الناحية المقابلة — وجه رجل أميل إلى السمرة وكان جاحظ العينين ترتسم الرعب فى ملامحه وقبل أن يلتفت الكونت أشارت مدام دى ميريه إلى ذلك الرجل إشارة معناها الأمل

وعند الساعة الرابعة من الصباح تم البناء وسد باب الخوان فبعث الكونت البناء إلى الحوذى جان لينام عنده ونام هو فى غرفة زوجه

ولما استيقظ فى صباح الغد قال لها دون اكتراث :

— يجب أن أذهب إلى المحافظة لأجل جواز السفر .

ووضع قبعته على رأسه ومشى ثلاث خطوات ولكن ظهر عليه أنه غير قصده فتناول الصليب الأبنوس وعندئذ كادت مدام دى ميريه تصيح من الفرح وقالت لنفسها :

— لاشك أنه ذاهب إلى دوفينييه

ولم يكد يغادر الدار حتى نادت وصيفتها وقالت لها :

— هيا على عجل ، لقد رأيت كيف ترك جورنفلو طوباً مفككا وعلينا الآن أن نحدث الثغرة المطلوبة ثم نبنى عليها . هيا ائتينى بالأدوات

وسارعت مدام دى ميريه إلى العمل بهمة فائقة وأخذت تزيل جانباً من الطوب وإذا بها ترى الكونت يعود ثانية ويدخل الغرفة دون أن تنتبه وكان قد اكتفى بالكتابة إلى المحافظة بصدد جواز السفر وبعث رسولا إلى الجوهرى دوفينييه ولاريب أن الكونت قد تنبأ بما ترومه زوجه فأراد أن يوقعها فى الفخ

وما كادت مدام دى ميريه ترى زوجها يدخل ويباغتها على ذلك الشكل حتى أغمي عليها فقال لروزالى :

— ضعى السيدة فى سريرها

وبعد برهة جاء الجوهرى دوفينييه فأطلعه الكونت على ذلك الصليب وقال له :

— هل اشتريت هذا الصليب من رجل أسبانى مر بهذه البلدة ؟

— كلا

— حسن أشكرك

ونظر إلى زوجه وهى راقدة نظرة تجلى فيها الحقد ثم أمر بأن تعد وجبات طعامه فى غرفة المدام وقال لجان وهو يأمره بملاحظة ذلك

— لأن السيدة مريضة ولن أترك غرفتها حتى تشفى من مرضها

وقد مكث فى غرفتها عشرين يوماً ، وفى الأيام الأولى منها كانت تسمع أصوات بداخل الخوان حتى كادت مدام دى ميريه تتوسل إلى زوجها أن ينقذ حبيبها السجين بذلك السجن الرهيب فكان الكونت يسبقها بقوله :

— لقد أقسمت على الصليب أنه لا يوجد أحد بداخل الدولاب !

عبد الوهاب مصطفى بحموده

الفصول والغايات

للفيلسوف الشاعر الكاتب

ابى العلاء المعري

طرفة من روائع الأدب العربى فى طريقته ، وفى أسلوبه ، وفى معانيه . وهو الذى قال فيه ناقدو أبى العلاء إنه عارض به القرآن . ظل طول هذه القرون مفقوداً حتى طبع لأول مرة فى القاهرة وصدر منذ قليل

محققه وشرحه وطبعه الأستاذ

محمود حسن زناتى

ثمنه ثلاثون قرشاً غير أجرة البريد ويطلب بالجملة من إدارة مجلة الرسالة ويباع فى جميع المكاتب الشهيرة

رفائيـــل

لشاعر الحب والجمال لامرتين

مترجمة بقلم

أحمد حسن الزيات

تطلب من لجنة التأليف والترجمة والنشر ومن إدارة « الرسالة »

الثمن ١٢ قرشاً

مصنع القرش لطرابيش وغزل الصوف

تحذير للجمهور

اتصل بإدارة المصنع ان بعض محلات الطرابيش تعرض للبيع طرابيش أجنبية باسم طربوش القرش المصرى . كما أنها تعلن عن بيع طرابيش القرش بغير أسعارها المحددة . ولما كان هذا العمل مضراً بسمعة الطربوش المصرى عدا ما فى ذلك من تضليل للمشترى وحمله على شراء بضاعة بغير صفتها الحقيقية .

لذلك ترى إدارة المصنع من واجبها أن تحذر الجمهور من ذلك وتنبهه إلى ان جميع طرابيش المصنع مختومة بختمين : الأول ختم طربوش القرش الأسود وهو الختم الأوسط أعلاه والثانى ختم الصنف وهو يبين نوع الطربوش كما هو فى الأختام الأخرى المبينة أعلاه والمرجو من كل مشترٍ أن يدقق فى فحص هذه العلامات عند عرض الأصناف وقت الشراء إذ ليس لطربوش القرش فى الوقت الحاضر أصناف أخرى خلاف الأصناف المبينة أعلاه كما أن الأسعار محددة .

طربوش القرش

مصنوع بأكمله فى مصر وبأيدٍ مصرية

صناعة مصرية صميمة

فتاة العصر

أقصوصة مصرية

بقلم الأديب نجيب محفوظ

هو شاب جميل الصورة طاهر النفس ، فاضل الخلق ، له دين ومروءة وعفة وحياء، يحفظ القرآن ويستلهمه القول والعمل، ويقيم الصلاة زلفى وتقوى، ويؤتى الزكاة طاعة ورحمة ، ويصوم رمضان تديناً وتطهراً . ومن يطلع على باطنه يجده صورة صادقة لظاهره ، وقد وهبه الله ضميراً يحاسبه على الخطرة الحبيسة حسابه على العمل المحسوس ، ويضرم فى نفسه حماساً وشوقاً إلى المثل الأعلى

وقد تسألنى أيها القارئ : هل هذا الذى تعنى أحد أشبال الاسلام الذين جاهدوا مع النبى الأمين ؟ فأقول لك : كلا ... هو من شباب العصر الحاضر، وقد تهز رأسك باطمئنان الذى اهتدى إلى حقيقة المسألة وتقول : « لا ريب أنه من أبناء الريف الطاهر الذى لم تلوثه حياة الحضر » فأقول لك : إنه من المقيمين فى القاهرة منذ ثمانى سنوات على أقل تقدير، وإنه طالب بكلية الحقوق، وإنه إلى هذا وذاك من أسرة صعيدية معروفة كريمة المحتد موفورة الثراء عظيمة الجاه فلا يمنعه من الاستهتار لو أراده فقر ولا ضرورة . وقد يأخذك العجب وتستبد بك الحيرة ويداخلك بعض الشك فى أننى لم أتوخ الدقة فى وصفه ، أو أننى أغض الطرف عن بعض نقائصه غض من يزكى عروساً ، ولكننى أؤكد لك أننى لم أجاوز فى نعته قولة الحق ، وأنه شاب فاضل حقاً ميزته سجاياه الجميلة عن جمهرة أمثاله من الشبان، فهو لا يشرب الخمر ولا يرقص ولا يدخن ولا يغازل الطالبات والمعلمات. ويتجنب الملاهى حتى البرىء منها ، فلم يعرف عنه أنه اختلف مرة إلى السينما ولا دخل المسرح إلا مرة واحدة ليشاهد رواية يوليوس قيصر التى كانت مقررة حينذاك على طلبة البكالوريا ، وهو فى حياته العامة والخاصة كالعابد القانت لا يعرف طريقاً سوى طريق الجامعة أو الجامع، ولا يطمئن إلى مكان غير البيت والمكتبة، وقد وهب حياته جميعاً لله والعلم

وما كنت أتطفل على حياته لو أنه قدر لها أن تسير فى مجراها المألوف ... لأنه يصح أن يقال فيه ما قيل عن الفيلسوف كانط من أنه لا حياة له . وحسبك أن تعرف تاريخ يوم من أيام حياته الموزع بين العبادة والدراسة لكى تعرف حياته جميعاً ... ولكن قدر لحياته غير ما أراد لها ووقع له ما لم يدر فى خلد إنسان ...

كان يقيم منذ هبوطه إلى القاهرة فى الجيزة فى بيت من البيوت المعدة لسكنى الطلبة ، وكان يسكن البيت المجاور له محام شرعى متزمت ، فلبثت نوافذ الحجرة التى تواجه حجرته مغلقة هذه الأعوام كأن لا حياة بها ، وانتقل المحامى أخيراً إلى مسكن جديد فحل مكانه موظف حكومى وأسرته ودبت فى البيت حياة جديدة وفتحت نوافذ الحجرة على مصراعيها وتمتعت بعد طول الحرمان بنور الشمس وطيب الهواء

ولم يفت الشاب ملاحظة التطور الجديد ولكنه لم يلق إليه بالا . وإنه ليجلس إلى مكتبه ذات يوم يكتب بعض المحاضرات سمع ضحكة رقيقة ، فالتفت

إلى الحجرة المواجهة له بحركة عكسية فلمحت عيناه «صورة أنثوية» ثم رد رأسه إلى الأوراق الموضوعة على مكتبه بسرعة البرق فلم يعرف من صاحبة الصورة إلا جنسها، أما لونها وشكلها فلم تلتقط منهما عيناه أي أثر وما كان ينبغي له ... ومضى يكتب محاضراته إلا أنه كان يحرك عينيه — ورأسه ثابت — ناحية النافذة كلما مضت فترة من الوقت فيلحظ الصورة الأنثوية الغامضة في مكانها من النافذة لا تريم، حتى أخذه العجب من ملازمتها لوقفتها — الخالية من الحياء — واشتد به العجب فرفع رأسه ورأى فتاة تطالع في كتاب وكأنها أحست بحركته فهمت برفع رأسها ولكنه رد رأسه إلى موضعه الأول بسرعة وقد اهتاجه الحياء والغضب وهمس لنفسه: «عسى ألا تكون رأتني» وبات ليلته غير راض عن نفسه لأنه صرف ثواني من وقته الثمين في غير ما يرضي الله ...

وفي صباح اليوم التالي وكان يرتدي ملابسه؛ لاحت منه التفاتة — لا يدري كيف — إلى نافذة جارته فرآها تطل منها في معطف المدرسة الأزرق الجميل وعلى رأسها قبعة صغيرة أنيقة فالتقت عيناهما قسراً، وسحب عينيه — كالعادة — بسرعة فلم يدرك حسن هاتين العينين ولكنه — وآسفاه — أحس بهما. وغادر البيت ساخطاً غاضباً يفكر في وسيلة يقطع بها دابر هذا الشر الباغت.. ولكن كيف ... إنه لا يستطيع أن ينتقل إلى حجرة أخرى فان جميع حجرات البيت مأهولة بالطلبة ... ولا يستطيع أن يغلق نافذة حجرته دواماً فهذا فوق ما يحتمل ... وجعل يفكر في أمر الفتاة ساخطاً غاضباً لاعناً، ولكنها على كل حال استطاعت أن تفرض نفسها على تفكيره سحابة يومه ...

ولدى عودته إلى مكتبه عصراً شعر بعجبها إلى النافذة كما فعلت بالأمس ولكنه أقسم ألا يميرها أي انتباه وألا يحنث بقسمه مهما كانت الظروف والأحوال؛ إلا أن جهداً كبيراً مما كان يصرفه في القراءة بذله في تركيز الانتباه وتجنب المحذور ... وبالرغم من ذاك المجهود الجبار فقد طرق أذنيه صوتها وهي تتكلم بصوت رخيم يحمل من أتفه الأحاديث ألحاناً رشيقة، ولم يفقه لما تقول معنى، ولكن لم تغب عنه حلاوة الصوت ... ترى من تحادث ... ولكن ماله هو ومن تحادثه ... فلتحدث من تشاء ... أو فلتحدث نفسها كالمجانين ... المهم أن يصم أذنيه عن صوتها الخبيث ... يا للشيطانة ... إنها لا تقنع بهذا الحديث فتضحك ضحكتها الرقيقة الطربة المغربة، وتالله إنها لتضحك لا بدافع السرور أو الطرب ولكن إيقاظاً للعواطف والشهوات ... فكيف السبيل إلى تفهم الرومانى والشريعة وسط هذه الاذاعة الجنونية المضطرمة؟...

ومضت أيام كثيرة وأسابيع وهي لا تكف عن أحاديثها الرقيقة وضحكاتها المثيرة وهو جامد كالجبار صارم كالصخر يجاهد نفسه مجاهدة عنيفة ويكبت عواطفه كبتاً لا هوادة فيه، ولكن الفتاة لم تستسلم للقنوط بل لجأت إلى طريقة شيطانية فأتت بطفل صغير وحملته بين يديها ومضت تداعبه وتلاعبه وتقبله قبلات حارة يرن صداها في حجرته وتقول له بصوت مسموع «يا حبيبي ... قبلني ... أعطني شفتيك العذبتين ... مالك لا تنظر إلي... أنظر إلى حبيبتك ... ألا تحبني ... ألا يروقك وجهي ... أنظر إلي يا حبيبي ...»

فكان يصغي إلى مناجاتها بقلب مرتجف كجناح طير ذبيح ، والدم يتصاعد إلى رأسه فيخضب وجهه وينبض بقوة في أذنيه ويستسلم إلى الاصغاء استسلام المجاهد اليائس أثناء الجهاد والعزم، ولا يلبث أن تتجلى في عينيه نظرة حزن عميق ويهتف من أعماق قلبه المعذب: « رباه ... اغفر لي ذنبي وهبني من لدنك قوة » ... ولكنها كانت تزداد جرأة على مرور الأيام حتى كان يصلي عصر يوم فوقفت خلف النافذة تديم النظر إليه وتقول ضاحكة : «إدع لي» وتقول أيضاً : « الله يهديك ويفتح عليك » فلما أن رأته يركع ليختم الصلاة أخذت تقرأ التحيات معه كلمة كلمة ... فاضطرب واستحيا ... رباه ... لقد جنح فكره إليها وهو بين يدي الله . وانفتل من الصلاة حزيناً كئيباً وارتمى على مقعده وجعل يتلو الآية الكريمة: «فاذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم ، إنه ليس له سلطان على الذين آمنوا وعلى ربهم يتوكلون » وكأن الآية الشريفة أمدته بقوة غريبة فانتفض قائماً بعزم كالحديد وسار إلى النافذة وفي عزمه أن يغلقها بشدة وعنف ... وقرأت الفتاة عزمه في تقطيبة جبينه فهتفت به بدلال جميل « إخص يا قدري ... »

وانخلع قلبه في صدره ورفع بصره إليها وهو لا يدري، فامتلأت عيناه من وجهها الأسمر البدري وهو في غيبوبة الدهشة والذهول .... وجفلت يداه من مس النافذة فعاد إلى مكانه كمن يسير في حلم .... كيف عرفت اسمه ؟ .... كيف ؟ ... ولماذا نادته به ؟ .... ما أجمل صوتها ! .... وما أجمل اسمه في صوتها ! .... إنه لم ينادِ هذا النداء من قبل .... وما هو بالنداء ، إن هو إلا غناء جميل .... لقد غنى باسمه كما يغنى بأسماء مشاهير العشاق في الروايات الغنائية الخالدة .... ولقد سما اسمه على أجنحة ذلك الصوت المذهب إلى طبقات الفضاء العالية ينافس محاسن الطبيعة حسنها وجمالها .... لقد أنى ذلك النداء على البقية الباقية من عزمه فتخاذل وتضعضع ولم يغن عنه عزمه ولا إيمانه فتيلا .... وطال ليله ولكنه لم ينم كبشار . وطرح على نفسه هذا السؤال أكثر من مرة « هل الحب فضيلة » ؟ إن ما يسمونه حبا وما هو إلا عبث وقبل ووعود كاذبة، رذيلة منكرة؛ أما تلك الجاذبية النفسية التي يهتدي بها الانسان إلى شريكته في الحياة فهي الحب وهي الفضيلة ، ولقد أحب النبي الكريم السيدة خديجة ، ثم أحب مرة أخرى السيدة عائشة أم المؤمنين، وما كان في الحالتين إلا كامل الخلق كما وصفه الله تعالى .... فما الحب بالرذيلة التي تخشى مقارفتها ، وما عليه من بأس في أن يحب جارته التي أجبرته على حبها .... وهكذا جعل يهون وقع المصاب على نفسه ويبرره أمام ضميره ليطمئن نفسه المذعورة المتهالكة .... وفي الصباح قام من نومه نشيطا مبتهجا برغم تقلبه وتسهيده وارتدى ثيابه بعناية لم يلق إليها بالا من قبل ، وكان يختلس من النافذة نظرات يبعثها الرجاء ويردها النهيب، ولكنه ألفاها خالية ، ولم يبق شيء يعوقه عن الذهاب إلى الكلية ولكن كبر عليه أن يذهب قبل أن يتزود بنظرة من وجهها الأسمر الجميل .... ولكن النافذة ظلت خالية كالفم الفارغ الذي غاب عنه دره النضيد .... ولم ير بداً من الذهاب فذهب كئيباً محسورا ورجع متلهفاً جزوعاً ، وانتظر على حرقة وشوق ، ولكن لم

ير لها أثراً ولا سمع صوتاً فذهب وجاء، وجاء وذهب وقام وقعد، وقعد وقام، وجعل يقلب فى أوراقه وكتبه بدون وعى، ودلف إلى نافذة حجرته واستند إليها وانتظر وانتظر . . . ثم انتظر حتى ضاق به الصدر وكتمت الأنفاس وحتى ودّ لو يصرخ بأعلى صوته أو يسير شوطا كبيرا بغير هدى، ومضى ذاك اليوم غير محسوب من العمر فلا ذوق للطعام فى فمه، ولا معنى للرومانى فى عقله، ولا أثر للصلاة فى قلبه.. ولا سبيل للنوم إلى جفنيه . . . . لقد مات ذلك اليوم الأغبر . . . .

وفى صباح اليوم الثانى . . . . وكان الجمعة — رآها كما كان يراها — فهبطت على قلبه طمأنينة سعيدة، وفرح فرح ذلك الانسان الذى رد إليه نور الأبصار بعد ظلام العمى ورفع نظره إليها بعد تردد واستحياء، ولكنه أحس بخيبة لأنه رآها تنظر فى كتاب بين يديها غير ملتفتة إليه فأدام إليها النظر ولكن لم يبد منها ما يشعر بأنها أحست بوجوده، فاقترب من النافذة وسعل سعالا خفيفا فنظرت إليه نظرة غريبة لا حياة فيها كأنها تراه لأول مرة ثم عادت إلى النظر فى كتابها . يالله الشيطان! ماذا حدث؟ أهى هى بذاتها أم هذه أخرى تشبهها؟ مالها هكذا جامدة وما الداعى إلى هذا الفتور؟ وفيم كانت إذاً مطاردتها له وإلحاحها عليه وتغنيها باسمه؟! أتناست هذا كله بين يوم وليلة فحل الزهد مكان الرغبة والجفاء مكان المودة؟ ورآها تغلق الكتاب وتمد يديها إلى مصراعى النافذة تريد إغلاقها فنسى نفسه وحياءه ورفع يديه إليها بتضرع وقال: « كلا . . . » فتوقفت ونظرت إليه نظرة شديدة إلى حين . . . ثم لم تتمالك نفسها فانفجرت ضاحكة ضحكا مكتوماً ظافراً وتجلت فى عينيها نظرة المجون والعبث . . . . فيا للشيطانة . ولم تضع وقتها سدى، فأشارت بيدها إلى نفسها وإليه ثم إلى الشارع، فاضطرب وتحير وأشار إلى الشارع مستفهما منكرا فهزت منكبيها ببساطة وأحنت رأسها كأنها تقول « ولم لا؟ »

فازداد حيرة لأنه يرى أن « الزندى ثو » باب من أبواب الحب المحرم لا الحب الفاضل فوقف متردداً لا يأتي حراكا ولكنها هزت يدها هزة عصبية تستحثه . . فأسرع إلى بدلته وارتداها ووضع الطربوش على رأسه بعناية فائقة وهبط السلم إلى الطريق لا يلوى على شىء، فرآها تسير على بعد أمتار منه فتبعها كالكلب الأمين، حتى بلغا ميدان الجيزة وانحرفت إلى اليسار فى طريق الأهرام وهو فى أثرها يتلفت بين الحين والحين يمنة ويسرة . . . وانتهت إلى محطة الترام ووقفت، فوقف على بعد منها قريب مضطرباً حائراً محمر الوجه — فالتفتت إليه وابتسمت ابتسامة مشجعة فابتسم ابتسامة ذاهلة ولم يدر ماذا يصنع، فلم تر بداً من أن تتقدم إليه وتمد إليه يدها وتقول برقة: « بونجور » فمد إليها يده كالخائف ورد عليها وهو لا يدرى ما يقول « بونجور مسيو » وهمّ بالالتفات فيما حوله ولكنها همست فى أذنه ضاحكة « الثبات » وجاء الترام رقم ١٤ فصعدت إليه وصعد خلفها وانتبذ مقعداً منفرداً وذهب بهما فى طريق الأهرام — وفي أثناء الطريق لاحظت ارتباكه فسألته برقة . . .

— مالك؟ فقال بصوت ضعيف

— لاشىء مطلقاً . . إلى أين نحن ذاهبان؟

— ستعلم بعد حين

— وماذا عسى أن يقولوا فى البيت؟

فأرته كتاب الطبيعة للمدارس الثانوية الذى كان بيدها وقالت ضاحكة :

— يقولون إنى أذاكر عند إحدى زميلاتى

فضحك قدرى وقد أحس بأنه ينبغي أن يقول شيئاً ليثبت وجوده كما يقولون فسألها :

— كيف عرفت إسمى ؟

— هذا أمر بسيط . . سمعت شخصاً يناديك

ماذا يقول بعد ذلك ؟ إنه لايجد مايقوله ! وقد سألته هى بتدلل :

— هل تعرف اسمى ؟ . .

— كلا . . .

— ولم لم تسألنى عنه ؟ . .

— . . . ! !

— إسمى لولو

— إسم جميل

— حقاً ؟

— جداً

— مِرّمى

— ولكن هل هو اسم عربى ؟

— نعم

— ولكنى لم أسمع به من قبل

فضحكت دهشة وقالت :

— لولو تدليل ليلى

— آه . . .

فقالت له ومازداد إلا دهشة :

— أنت ساذج جداً ياقدرى

ما أحلى اسمه فى فمها ! وما أحلاها هى ! وما أحلى الدنيا فى وجودها

وسكتت عن الكلام حيناً فسكت طبعاً وكانت تديم النظر إلى وجهه لاتحول عينيها عنه ؟ فألقى عليها نظرة على عجل أبصر بها حسنها الفاتن وأناقة ملبسها البالغة ، ولم يعد يحتمل نظرتها الفاحصة فعطف رأسه إلى نافذة الترام وأرسل بناظريه إلى الحقول الترامية يميل نبتها الأخضر القصير مع ريح نوفمبر الخفيفة الباردة وقلب وجهه فى السماء كأنه يشاهد زرقتها الباهتة التى انتشرت عليها الكثبان من السحاب بعضها أبيض متوهج كالقطن المندوف، والبعض مظلم داكن كالدخان. والحق أنه ماكان يرى إلا الصورة التى انتزعتها عيناه من وجهها الأسمر الجميل واحتفظت بها متشبثة جشعة . ثم حول رأسه إليها فوجدها مازال ترنو إليه بعينيها المسليتين الجذابتين ... رباه ! . . ، وأثارت الحديث مرة أخرى فسألته :

— أرى أنك طالب ... أليس كذلك ؟

— نعم

— بأى كلية ؟

— الحقوق

— آه ... وفى أى سنة ؟

— السنة النهائية

فبدا على وجهها الارتياح وعادت إلى الصمت وكانت تنظر إلى الطريق كل دقيقة وأخرى، وكأنما أصابت هدفها فقامت واقفة وهى تقول له : « هلم » ولم يكن الترام قد بلغ نهاية مرحلته إلى الأهرام فعجب قدرى ولكنه تبعها مستسلماً إلى مقهى قريب من المحطة ، واجتازت به المكان إلى حديقة خلفية صغيرة المساحة أنيقة التنسيق يخيم عليها سكون شامل وهدوء عميق ويوحى جوها بالخيال والحب ، فاتخذا مكانهما تحت ظل شجرة وارفة ولم يكن

بالحديقة سوى زوجين مثلهما فى الجانب المقابل لهما وجاء النادل يسعى فطلبت ليلى بدون استئذانه « شوبين بيرة » دهش للطلب وامتلأ قلبه رعباً ... كيف يشرب خمراً محرمة ؟ وهم بالاحتجاج ولكنه لم يجسر عليه فسكت وهو كظيم ... وكان مبلبل الفكر يسأل نفسه : كيف عرفت هذا المقهى المنعزل البعيد ؟ ومتى عرفته ؟ من الذى صحبها إليه أول مرة ؟ فانه من المستحيل أن يكون مجيئها اليوم إليه لأول مرة ... يالها من فتاة غريبة الأطوار ... غاية فى الجسارة والجرأة ... أنظر إليها كيف تجلس واضعة رجلاً على رجل وساقها بادية حتى الركبة ... وانظر كيف تفتح مقدم معطفها عن صدر ناهد فيلوح ثدياها من وراء ستار الفستان الرقيق كتفاحتين آن أوان جنيهما ...

وانتبه من أفكاره إليها وهى تقول :

— أنت لا تكاد تبرح حجرتك إلا حين تذهب إلى الكلية ... وفيما عدا ذلك فأنت لا تفارق مكتبك على الاطلاق ... لقد عجبت لشأنك وقلت لنفسي: يالله من شاب ليس كالشبان ... ثم رأيتك لا تبالى بى ... فأفسمت

وكان الباقى مفهوماً فلم تكمل حديثها وضحكت ضحكة الظافر ثم عادت تقول :

— لا تظن أن إصرارى — الذى لا شك أدهشك — كان محض عناد أو رغبة في الفوز، فالحق أن وجهك الجميل أثر فى نفسى تأثيراً عميقاً من أول نظرة

فغلبه الحياء وخضب الاحمرار وجهه وتصبب العرق من جبينه وقال لنفسه : ويلاه ! من منا الشاب ، ومن منا الفتاة ؟ أما هى فسألته :

— لماذا جفوتنى طويلا . . أليس قلبك خالياً ؟

وحضره جواب ظن أنه غاية فى الجرأة وآية فى الغزل فتردد عن قوله هنيهة ولكنه ذكر كلامها الجسور فجمع أطراف شجاعته وقال :

— كان قلبي خالياً

— والآن ؟

أف لها، ألا تكفيها الاشارة؟ وماذا يستطيع أن يقول زيادة على ماقال؟ ولكنها خففت من حيرته فقالت:

— وقبل ذلك ألم تحب أبداً ؟

— أنا ... ؟ أبداً

— أشباب وجمال وجفاف ؟

— ولم لا ؟

— ولكن ما قيمة الحياة بغير الحب ؟

— قيمتها بغير الحب أنها حياة فحسب

— هذيان ما تقول ... فالزمن الذى لا يخفق قلبي فيه بالحب لا أعده من حياتى

— يا سلام !

— أنت إما ساذج غرير أو ماكر داهية

— لا شأن لى بالمكر والدهاء ... ولكن هل أحببت كثيراً ؟

— طالما أبحث عن الحب ... إنى أحب الحب ... وإن ضللته فى الواقع فما أضله في الخيال فانى أخلق حبيبي خلقاً وأماجيه بالشعر ... ألا تعلم أنى شاعرة ؟ ثم أتغنى بشعرى لأنى موسيقية أيضاً ...

— شعر وموسيقى ...

— نعم ... ولكنى أحب الفن للحب لا للفن ... وكم أتمنى لو يتحقق خيالى يوماً وتتفتح حياتى تحت

شعاع الحب ، إن قلبي يحدثني بأني بت على خفقة قلب من أمنيتي

فعاوده الحياء الشديد واستولى عليه الارتباك وجعل ينظر إلى غطاء المنضدة كأنما يشاهد الصور المطرز بها ، فكرت تداعبه وتقول وهي تتنهد :

— بهذا حدثني قلبي وأرجو ألا يكذبني ... ولذلك جددت في طلابك لتطمئن نفسي

فابتسم وقال :

— إذاً فأنا تحت التجربة ؟

— هو ما تقول ... ألا تقرني على ما فعلت ؟ أما أنا فاني مقتنعة بأني ما تنكبت جادة الصواب ، فهذا هو السبيل الوحيد إلى « الحياة الزوجية » السعيدة ... !

وحيرته تلك الجسارة التي لم يسمع بمثلها من قبل وعجب كيف أنها تخلص إلى غرضها غير مكترثة للحياء أو التردد كالسهم الذي ينفذ إلى القلب من خلال الدرع المتين ، ورأى ألا يجعل للخجل سلطاناً على نفسه خشية أن تقتحمه عيناها وأراد أن يخوض الموضوع بجرأة تماثل جرأتها فقال :

— صدقت يا ليلى ...

ولكن سرعان ما غالبه التردد فغلبه ولم يزد على قوله حرفاً ، وشاهدت حيرته فقالت :

« أراك تحجم عن الكلام ، على أن هذا هين علي ، وكم من شاب يجيد تزويق الأحاديث وقلبه من الاخلاص خال ... أنا أبحث عن القلب الذي يخلص لي ... »

قالت ذلك ووضعت يدها على يده فانتفض انتفاضة سرت إلى جسمها وبلع ريقه مرتين وقال بحرارة ووجد :

« قد يعز عليّ الكلام يا ليلى ولكني مخلص .. أي نعم أنا مخلص وصادق ولست كأحد من الشبان الذين تعنين ... أنا لا أخادع فتاة وأمكر بها كي أحظى منها بقبلة ثم أفر هارباً ... »

فضحكت وقالت وهي تشير بيدها « أنظر » فنظر إلى ما تشير إليه فرأى الزوجين الجالسين تجاههما يتعانقان فبدا على وجهه الغضب وقال :

— هذا شاب عابث ممن تعنين

— ما الذي جعلك تسارع إلى هذا الحكم ؟

— ألا تريته يقبل فتاته ؟

— ولم لا يقبلها إذا كان يحبها ؟

— فقال بشيء من الحدة :

— الحب الطاهر يترفع عن هذا العبث

فقالت بدلال وما تزال يدها على يده :

— هنالك قبلات طاهرة بريئة

— وما الفرق بين القبلة البريئة وغير البريئة ؟

فأدنت وجهها من وجهه وهمست قائلة :

— القبلة البريئة تنال بغير فضول أعني بلا ضم ولا عناق

ورأى فمها دانياً كأنه يقول له « قبلني » فرت به لحظة رهيبة ... ونظر إليها في حياء وارتباك لا يدري كيف ينال هذه القبلة البريئة ، وكان كلما مرت ثانية ازداد إحجاماً ، حتى سمعا معاً وقع أقدام ، فتراجعت الفتاة وقد احتقن الدم بوجهها ، وتنهد هو ارتياحاً ، وجاء النادل بالجعة ثم اختفى ثانية ، ورفعت الشوب وهي تقول « صحتك » فارتد سريعاً إلى حالة الارتباك والحياء ، ولكن تردده هذه المرة لم يطل لأنه أشفق من أن يجرح شعورها مرة أخرى فرفع « الشوب » وتجرع رشفة ثم رده

وقد بدا على وجهه الاشمئزاز ؟ فسألته :

— ألا تعجبك ؟ فقال :

— إنها مرة كريهة

— ألم تذقها من قبل ؟

— أبداً !

— حقاً إنك شاب عجيب ! لست كأحد من شباب العصر

— وهل تدعين العلم بهؤلاء الشبان ؟

— إن أمرهم مشهور

وصمت يفكر ملياً ، فساورته بعض الشكوك ، وتيقظت به صميديته فسألها :

— ألم تعرفي أحداً منهم ؟

فباغتها السؤال ، ولكنها كانت تؤمن بأنه لا يمكن أن تخفي حقيقتها إلى الأبد فقالت باخلاص « إصغ إلي يا قدري ... أنا لا أحب أن نبدأ حياتنا معاً بالكذب والرياء وما دمت تريد أن تعلم فاعلم أني عرفت شباناً كثيرين ... »

فاكفهر وجهه وأظلمت عيناه وسألها بصوت فاتر :

— وكيف حدث ذلك ؟

— كما يحدث عادة ؛ إذ ليس التعارف من الصعوبة بالمكان الذي تراه ، وكنت أذهب إلى اللقاء تغرر بي آمال قلبي في الحب فألقى خداعاً ورياء ووعوداً كاذبة فأرجع أتعثر في أذيال الخيبة والقنوط

فازداد اكفهرار وجهه وتصلبت عضلاته وساورته الشكوك فسألها :

— ألم ينل واحد منهم قبلة بريئة ؟

— لماذا تنبش الماضي ؟

— كيف لا ؟ ما الحاضر وما المستقبل إلا امتداد للماضي

— كنت أبحث عن ضالة قلبي المنشودة

— لم لم تنتظريها حتى تأتيك هي دون تلوث ؟

— تلوث ؟ ماذا تستطيع أن تنال قبلة من طهارة قلبي ونفسي ؟ لاتكن كالجامدين الذين ينظرون إلينا نظرة الجشع والأنانية فيود الواحد منهم لو يلهو ويعبث كيف يشاء على أن تنظره عروسه خلف الستائر لاتمسها يد كأنها لؤلؤة في قوقعة . . ينبغي أن نحظى بقسطنا من الحرية ، والحرية معنى سام . ولا تظن أني حمقاء ، يخيل إلى الجاهل أن الحرية هي الاستهتار ، كلا ، هي عندي الخلاص الالهي للعقل والشعور كي أرى بعقلي وأشعر بقلبي ، فاذا أحببت فاني أهب قلبي عن حب صادق لا عن اضطرار أو تسليم أو يأس . كم من فتيات يجدن أنفسهن في بيوت رجال لايدرين كيف ذهبن إليها فيروضن أنفسهن على الرضا ترويض الأسير نفسه على الذل ويعشن حياة بهيمية تتحكم فيها ضرورات الحياة وحاجات الجسد ... كلا ، ليس هذا الزواج الذي أريد . . أنا أريد زواجاً تلتحم فيه الروحان التحام الجسمين . . فيكون اتحادهما خير عتاد لدوام العشرة الشريفة السامية . .

— لا أنكر ما في كلامك من الوجاهة والحق ، ولكن السبيل الذي تنتهجين لايسلم رواده من رذاذ يلوث السمعة .

— ليس ذلك لعيب فيه ولكن لأننا لم نعتد عليه . . فلا تجعل لهمس الناس فوق مايستحق من

الاعتبار، واذكر أن مثلي إذا وهبت قلبها فانما تهبه عن حب يصمد للمواصف فهي آمن على الحياة الزوجية ممن تسمونها « فتاة البيت » أو « الغريرة التي لاتعرف من الدنيا شيئاً . .

وبدا على وجهه الارتباك والانقباض فتولاها الخوف والقلق وقالت بشيء من الانفعال :

— ماذا يهم الماضي أوكلام الناس إذا وجدتني منذ الساعة طاهرة مخلصة حتى الموت ؟ لاتصغ إلى وسوسة نفسك وكن مثلي جسوراً واقتحم التقاليد السخيفة لتفوز بالسعادة . .

هل تبيعني بثمن بخس ؟

وكان مستغرقاً في تفكيره فلم ينتبه إلى سؤالها الضارع فاشتد انفعالها وسألته :

— هل تبيعني يافدري بثمن بخس ؟

فهز رأسه وهو لايدري وقال لها :

— كلا . . ماذكرت في هذا قط

— إذاً فهل أطمئن إليك ؟

— كل الاطمئنان

— وهل أعزي نفسي عن طول عذابي بأن تعبي لم يضع هباء وأني وجدت أخيراً ضالتي المنشودة ؟

— أرجو أن أكون كذلك

— وإنك لكذلك؛ وها هو ذا قلبي دليلي يبث في نفسي الطمأنينة والاستسلام بما لم أعهده فيه من قبل ... كم أنا فرحة يا قدري ... إنك لم تقل لي أحبك ولم أقلها لك ولكن كلانا يعترف حاله بالحب وبأننا تعاهدنا عليه إلى الأبد ، أليس كذلك ؟

— نعم ... نعم ...

— أواه ياقدري ... كم أنا فرحة .. وكم أجد رغبة ملحة في الغناء... ماذا تحب أن أسمعك دوراً ؟ لعبد الوهاب ؟

فهز رأسه بفتور ، فقالت ضاحكة :

— إنك كغالبية الرجال تحبون أم كلثوم

— ولا هذه ، فقالت بدهشة :

— ألا تحب الغناء ؟

— أحب أن أسمع صالح عبد الحي

— إيه !

فقلق لانكارها وسألها :

— هل تعدين هذا تنافراً بين روحينا ؟

فقالت تهدئ روعه :

— كلا ياعزيزي ، إن ماما وبابا في شقاق دائم بسبب عبد الوهاب وأم كلثوم ، ولكنهما زوجان سعيدان ... إني آسفة لأني لا أحفظ أدوار صالح عبد الحي ولكني سأغني لك « افرح ياقلبي ... » وغنت بصوت عذب أطربه وأسكره وما زالت تراوح بين الحديث والغناء وهما في دنيا لاتعرف الزمان والمكان حتى حانت العودة فعادا وافترقا على موعد جديد . . .

وحين خلا إلى نفسه صاح : رباه أي فتاة !

لقد بدأته بالمغازلة ... ودعته صراحة إلى تقبيل فمها ... وذكرت الحب والزواج وصارحته بماضيها الحافل ، وعادت وهي تعد نفسها مرتبطة معه بميثاق أبدي!! انتهى الأمر ، فأحب وخطب وعاهد بالرغم من أنه لم ينطق بجملة واحدة مفيدة ! فأي فتاة هي ؟! هذه واحدة ، أما الأخرى فهي ابنة عمه الحاج اسماعيل

حافظ تاجر القمح الشهير بجرجا التي يعد زواجه منها — لدى والديه على الأقل — أمرا مفروغاً منه على الطريقة الصعيدية ، الحق أن ليلى محت من قلبه كل أثر لابنة عمه ، وأمثالها ولكن نفسه لم تطمئن إليها ، ولم يكن قدرى ضائق القلب ولا متعصبا بل كان ذكيا حاد الذكاء لا تحجب التقاليد نور الحق عن عينيه، فقدر ماللفتاة من الذكاء واللباقة والرشاقة وأعجب بروحها الحساسة التي تلبي نداء الشعر والموسيقى والغناء، ولكن لم يشرب قلبه الاطمئنان فكان كمن يعجب بدين غير دينه دون أن توائيه الشجاعة على الدخول فى الدين الجديد ...

وجعل يقول لنفسه: ماذا يكون حالى لو تزوجتها ورآنا واحد من أصدقائها القدماء فمال على صاحبه وقال ساخراً « أترى هذه المرأة التي تسير إلى جانب زوجها ... ؟ كانت وكانت ، وكنت وكنت .. »

ولكنه على تردده وخوفه لم يكابر فى الحق فاعترف فيما بينه وبين نفسه بأنه يحبها حبا لم يحبه أحداً وأنه يهيم بها هياماً ...

إن في قلبه لحباً قوياً يروضه على النزول على حكم زمانه، وإن فى نفسه لتراثاً من التقاليد الغاشمة يصده عن فلسفة العصر الحديث، وهو بينهما موزع لا يدري أين المستقر ، وعبثاً حاول أن يخلص من شكوكه وهواجسه ، وما زال يقدر ويقدر دون أن يهتدى إلى رأى أو يقر على عزم ...

نجيب محفوظ

الطـــــائرة

اسرع وألطف وسيلة للسفر من مصر إلي العراق

وبالعـــــكس

عن طـــــريق فلسطين

ســـافروا بالســـلامة على طائرات

شركة مصر للطـــــيران

خصم ١٠ ٪ على تذكرة الاياب دائمـــا

الاستعلامات وحجز التذاكر من أي مكتب سياحة أو من مركز الشركة بألماظة

حاجي بابا الإصفهاني

للكاتب الانجليزي "جيمس موير"
بقلم الأستاذ عبد اللطيف النشار

(تابع)

وكان الضباط والجنود وهم أكثر الفارسيين كلاماً وأقلهم جرأة يصيحون : « اقتلوهم ! اضربوهم ! اعتقلوهم ! » ولكن أحداً من هؤلاء الصائحين لم يفعل شيئاً لمنع العدو الغير . وأطلقت بعض طلقات نحونا فلم يصب أحدنا لحسن الحظ إصابة جدية . وذلك بسبب الظلام

وفي أثناء هذه الحركة حدثتني نفسي بأن أترك اللصوص وأختبئ في مكان أفر منه في الصباح . ولكن رأيت بعد تفكير قليل أن ذلك يؤدي إلى اعتقالي ومحاكمتي لأن الثياب التي عليّ تدل على اشتراكي مع التركمان في هذه الغزوة . وليت الأمر يقتصر على الاعتقال والمحاكمة بل إن أهل المدينة يمزقونني إرباً إذا رأوني قبل أن أجد فرصة لشرح حالتي لهم

ورأيت وأنا أجري في الطريق حانوت أبي فتذكرت أيامي السعيدة . ولم أستطع منع نفسي من التريث قليلا والالتفات إليه بعد أن غادرته

وشمرت في هذا الحين بيد تمسكني من ذراعي ورأيت أصلان سلطان عابس الوجه يهددني بالقتل إذا لم أرهن على أنني أهل للثقة التي أولانيها، فلأجل أن أظهر له وفائي هاجمت رجلا فارسياً كان قد خرج ليرى سبب الهياج وقلت له إنه إذا لم يتبعنا أسيراً فاني أقتله

فصاح الرجل متوسلا بقبر الحسين وبقبر عمر وبروح أبي أن أتركه

ولما سمعت صوته تأملت في وجهه فاذا هو أبي، ولا بد أن يكون غرضه الأول من الخروج إلى الطريق في هذا الوقت هو إنقاذ ما بحانوته من أيدي اللصوص ولم يكن بذلك الحانوت غير ستة مناديل وأربعة كراسي وصندوق من المواسي وصابون وسجاد

ولما عرفت أنه أبي تركت لحيته التي كنت قابضاً عليها وهممت بأن أجري على عادة الفارسيين في احترام آبائهم فأقبل يده وأقف أمامه منتظراً أوامره، ولكنني رأيت أنني لو فعلت ذلك لقضيت على حياتي وحياته فتظاهرت بأنني أضربه ووجهت ضرباتي إلى سرج جوادي وقال متمتماً : لو كان ابني حاجي بابا موجوداً لما عوملت هذه المعاملة »

فآلمتني هذه الكلمة أشد الألم وقلت لأصلان باللغة التركية : هذا الرجل لا يفيدنا بشيء لأنه حلاق »

ثم تركته وركضت مع أصلان

الفصل السادس

التحقيق مع الأسرى وتوزيع الأسلاب

لما وصلنا إلى مكان بعيد عن المدينة نزلنا عن الخيل لنريحها ونستريح ولم ينس أصحابي أن يسرقوا جملاً في جملة ما سرقوه فذبحوه وشووه واقتسمناه بيننا ، وكان أول شيء فعلناه بعد ذلك هو التحقيق مع الأسرى لنعرف ماذا استفدناه من أسرهم . وكان الأول طويل القامة نحيل الجسم يبلغ الخمسين من العمر حاد النظرات بادي عظام الوجنتين خفيف

اللحية يبدو عليه التفكير . وكانت ثيابه ثمينة دالة على الغنى

وكان الرجل الثانى قصيراً سميناً ممتلئ الوجه بالدموية تدل هيئته وثيابه على أنه من كبار الموظفين وهو يبلغ الخامسة والثلاثين من العمر

وكان الرجل الثالث قوى الجسم متجهم الوجه تدل هيئته على القوة والصلابة

أعطينا هؤلاء الأسرى ما بقى من طعامنا ، ثم دعونا واحداً بعد واحد منهم واستجوبناه عن صناعته ومركزه فى الحياة . ولما لم يكن أحد من زملائى يعرف اللغة الفارسية فقد قمت بمهمة الترجمة وكان الذى يلقى الأسئلة هو أصلان سلطان وسألنا الأسير الأول :

— « من أنت ؟ »

فقال بلهجة المستسلم : « أنا يا سادتى رجل فقير ليس لي مركز فى الحياة »

— « ما صناعتك ؟ »

— « أنا شاعر ولست أحسن أى عمل من الأعمال »

قال أصلان وهو يظهر الاشمئزاز عند ما سمع هذه الصناعة : « شاعر ! وماذا نستفيد بالشعر ؟ إن ثمنك لايقدر عندنا بعشرة قروش . إن الشعراء فقراء ولا يقبل أحد أن يفتديهم من الأسر لأنه لا نفع فيهم »

ثم قال : « ولكن إذا كنت شاعراً فمن أين جاءتك هذه الثياب الثمينة ؟ »

فقال الشاعر : هذه خلعة أجازنى بها أمير شيراز على قصيدة مدحته بها

فأمر أصلان سلطان بنزع هذه الثياب عنه وإعطائه ثوباً من سلخ الغنم . ثم جئ بالرجل القصير السمين وسألناه :

— « ما اسمك وما صناعتك ؟ »

— « أنا قاض فقير »

— « وكيف تلبس هذه الثياب إذا كنت فقيراً ؟ اعترف بأنك غنى وإلا فصلنا رأسك عن جثتك . إن كل القضاة أغنياء فصناعتهم تجارة رابحة »

قال القاضى الأسير : « أنا قاضى مدينة جالادون وقد جئت إلى أصفهان بأمر من الحاكم لأدفع الضريبة عن مزارعى »

فقال أصلان سلطان : « وأين هى الأموال التى جئت لتدفعها ؟ »

أجاب القاضى : « ليس معى أموال لأن الجراد أتلف زراعتى فى هذا العام ولم يكن ماء الرى كافياً »

فقال الزعيم : « هذا القاضى يقدر بثمن كبير وإذا كان عادلاً فان الفلاحين يودون أن يعود إليهم . أما إذا لم يكن كذلك فان قيمته لاتقدر بدينار (وهو أصغر عملة فى فارس) احتفظوا به فقد يكون انتفاعنا به أكثر من انتفاعنا من أى تاجر غنى . ولننظر الآن ماقيمة الرجل الثالث »

واتجه أصلان سلطان إلى الرجل الثالث وقال : « من أنت وما صناعتك ؟ » فقال الرجل بلهجة المعتز بنفسه : « صناعتى فراش »

فصاحت الأصوات من كل جانب : « هذا كذاب ! هذا كذاب ! ويستحيل أن يكون فراشاً . أنت تاجر وإذا أصررت على كذبك فاننا سنقتلك »

ولكن الرجل أصر على قوله فضربوه حتى اعترف بأنه تاجر

ولكنني وأنا أكثر منهم معرفة بأحوال الناس رأيت من هيئة الرجل أنه قد لا يكون تاجراً وأنه ربما كان صادقاً فيما يقول، فحاولت إقناعهم بذلك ولكنهم زجروني وحاول بعضهم أن يضربني فاضطررت إلى السكوت . وتداول أصحابي بعد ذلك فيما يجب أن يفعلوه بالثلاثة الأسرى ، فقال البعض إنه يحسن إبقاء القاضي وقتل الشاعر والفراش، ورأى البعض إبقاء القاضي طمعاً في فديته واسترقاق الفراش . واجتمعت كلمة الفريقين على قتل الشاعر

وقد أخذتني الرأفة بهذا الرجل الذي كانت هيئته تدل على أنه كبير الأهمية وعلى أنه غنيّ بالرغم من ادعائه الفقر فقلت لأصحابي : « ما أهول الغلطة التي تريدون ارتكابها ! تقتلون شاعراً ؟ ألا تعرفون أن الشعراء قد يكونون من أغنى الناس وأنهم جميعاً قادرون على الوصول إلى الغنى متى اتجهت ميولهم إليه لأن كسبهم من ثمرات عقولهم ؟ ألم تسمعوا عن الملك الذي كان يعطي الشاعر مثقالا من الذهب عن كل بيت يقوله ؟ أليس الشاه الحالي يجزل العطايا على قصائد المديح ؟ ومن يدري لعل الشاعر الأسير عندنا الآن هو شاعر الملك » !

قال أحد اللصوص : « إذا كان الأمر كذلك فليكتب لنا قصيدة في الحال وإذا لم نجز بكل بيت منها مثقالا فاننا نقتله »

فقال الجميع : « قل لنا شعراً وإلا قطعنا لسانك »

وأخيراً تقرر أن يبقى الثلاثة الأسرى ثم بدأوا يقتسمون بينهم الأسلاب ، فدعانا أصلان وجمعنا حوله وسأل كلا منا عما سرقه فقدم إليه بعضهم مباسم ذهبية وقدم البعض علباً فضية أو طيلساناً أو غير ذلك من الأشياء القليلة الثمن . ولما جاء دوري قدمت الصندوق المملوء بأكياس الذهب وكنت قد راجعت عقلي وخشيت أن يوجد مع الكيس الذي خبأته فوضعته بالصندوق مكتفياً بما اعتقدت أنهم سيمنحونه لي من الأسلاب

لكن طاش ظني فانهم قابلوني بالتصفيق وامتدحوني وأثنوا عليّ . ولكنهم لم يعطوني شيئاً رغم إلحاحي الشديد

قال أصلان عند ما قدمت إليه الصندوق : « أحسنت ياحاجي . أحسنت كل الاحسان . لقد أصبحت تركمانياً صادقاً وليس في وسع أحدنا أن يفعل خيراً مما فعلت »

ولما انتهى كل واحد من إطرائي قال الزعيم : « إنني سأتبناك ياحاجي بابا وسأقيم لك خيمة وحدك وأزوجك من إحدى إمائي وأعطيك قطيعاً من الغنم وسأدعو إلى عرسك جميع المعسكر »

لم يكن شأن هذه الكلمات إلا أن تزيد من تصميمي على الفرار في الفرصة الأولى . ولما طلبت إعطائي نصيباً من الأسلاب قيل لي : « إذا قلت كلمة أخرى فاننا سنقطع رأسك »

فسكت مكرهاً ثم اقتسموها بينهم فحدثت منازعات كادت تؤدي إلى سفك الدم لولا أن واحداً منهم قال : « لماذا نختصم كذلك وبيننا قاض ! تعالوا نترك الأمر لحكمه »

فجيء بالقاضي الأسير ليكون حكماً بين اللصوص الذين يختصمون على توزيع أمواله لأن أكثر المسروق كان مملوكاً له

الفصل السابع

تاريخ الشاعر عسكر

عدنا من نفس الطريق الذى أتينا منه . وكان منظر الشاعر منذ أسرناه مؤثراً فخصصته بعطفى وقد أرضيت غرورى بأن أصبح فى حمايتى رجل من رجال الأدب فى وقت محنته . ونجحت فى تولى الرقابة عليه محتجاً بأنى سأحثه على نظم الشعر

وصرت أتكلم معه باللغة الفارسية التى لا يفهمها أحد من التركمان وقد أمنت جانبه وأمن جانبى فأعربت له عن رغبتى فى الفرار وأظهرت له استعدادى لأداء أية خدمة له . وقد ظهر عليه السرور حين سمع كلماتى الرقيقة حيث كان لا ينتظر إلا معاملة خشنة . ولما اكتسبت ثقته بهذه الوسيلة أخذ يحدثنى بحرية عن نفسه وشئونه وقد كان كما ظننت شاعر الملك

وكان لقبه الرسمى « ملك الشعراء » وكان عائداً من شيراز (حيث أرسله الشاه فى مهمة) إلى طهران ومر بأصفهان ليلة وقوعه فى أسرنا .

ولقطع المسافة فى الطريق الشاق طلبت إليه أن يحدثنى بقصته بعد أن حدثته بقصتى فروى لى تاريخه كما سأذكره متوخياً ذكر ألفاظه . قال :

« ولدت فى مدينة كرمان واسمى عسكر وكان أبى حاكما على المدينة فى عهد الملك الخصى « أغا محمد شاه » وبالرغم من كثرة الدسائس التى كان يراد بها عزل أبى فانه كان من القوة بحيث تغلب على كل أعدائه . وبقى فى منصبه حتى مات موتاً هادئاً فى عهد الشاه الحالى وورثت عنه عشرة آلاف طومان (نحو ستة آلاف جنيه) وكنت فى صغرى منهمكا فى الدراسة حتى بلغت السادسة عشرة من العمر فأصبحت من أكثر الناس استظهاراً للشعر . وكان ديوان حافظ الشيرازى مما حفظته عن ظهر قلب . وصرت أقرض الشعر بسهولة عجيبة حتى اشتهرت بأنى أستطيع أن أجعل كل كلامى منظوماً . ولم أترك موضوعاً إلا وكتبت فيه ، فكتبت عن ليلى ومجنونها ونظمت قصائد كثيرة على لسان البلبل يناجى بها الورد ، وفى مختلف المرامى والأغراض . وفى ذلك الوقت كان الشاه يحارب « صادق خان » وهو زعيم كان يطالب بالعرش .

وقاد الشاه جنوده بشخصه لضمان الانتصار على هذا الثائر فكتبت قصائد كثيرة فى مدح الشاه وتشجيع جنوده على الحرب وجعلت فى بعض هذه القصائد كلاماً على لسان رستم أشهر الفرسان فى تاريخ بلادنا وجئت بالمعانى البديعة التى سهل حفظها وكثر تداولها ، ومن هذه المعانى قولى إنه لاحق لجنود صادق خان فى التظلم من الشاه لأنه وإن كان قتلهم إلا أنه جعل رؤوسهم عالية برفعها إلى السماء . وقد سمع جلالة الشاه هذا القول فى جملة ماسمعه من مدائحى فطرب وأمر بنصب أعمدة توضع فوقها رؤوس الثائرين تصديقاً لما قلته .

وأكرمنى أكبر اكرام يمكن أن يناله شاعر وذلك بأن ملأ فمى درراً فى وسط جمع حاشد من كبراء الدولة ورجال البلاط والوزراء والحكام . وكان هذا أول باب لرفعتى فقد عينت بعد ذلك فى الحاشية وجعلت شاعر الملك وكلفت بالكتابة عن كل الحوادث . وقلت للشاه إن الشاعر الفردوسى وضع كتاباً لتخليد ذكرى جده وسمى كتابه « شاه نامه » أى تاريخ الملوك وإن ذلك الشاه أذن بأن يقدم الكتاب باسمه وكافأ صاحبه عليه .

واستأذنت جلالته أن أضع كتاباً أدعوه « شاهنشا هنامه » أى تاريخ ملك الملوك ، فسر الملك وأذن بوضعه وتنويجه باسمه وشكرنى .

وكان وزير المالية عدواً لى بغير سبب يحمل على العداوة ففرض علىّ ضريبة قدرها ١٢٠٠٠ طومان بوصف كونى أكبر شاعر فى البلاد فرفعت أمرى إلى الشاه الذى أمر بالغاء هذه الضريبة .

وحدث فى يوم من الأيام أن دارت مناقشة فى جمع كبير عن الجائزة التى أثاب بها محمود شاه شاعره الفردوسى وهى منحه مثقالا من الذهب على كل بيت فقلت إن هذه الجائزة تعدل ، لا بل تقل عن جوائز الشاه الحالى لشاعره الضعيف الموجود بينكم الآن ، فالتفتت إلىّ العيون وبدا على كل من المجتمعين أنه قوى الرغبة فى معرفة الجائزة التى أثابنى بها الملك . فقلت إن جلالته سمح بأن أرث عن أبى عشرة آلاف طومان مع أنه كان حاكما وأموال الحكام يرثها الشاه إذا أراد ، وفقاً لقوانين هذه البلاد فكان هذا المبلغ أول جائزة نلتها . ثم أراد وزير المالية أن يفرض علىّ ضريبة قدرها ١٢٠٠٠ طومان فرفع جلالته عنى هذه الضريبة وأجازنى بكيت وكيت . وذكرت هداياه لى والراتب الذى أتقاضاه فى منصبى ، فكانت جملة ذلك أكبر من جائزة محمود شاه للشاعر الفردوسى ثم هتفت بحياة الملك وبأن ينصره الله على كل أعدائه

وكنت على يقين من أن كل ماقلته فى هذا المجلس سينقل إلى الشاه بأحرفه . وبعد بضعة أيام جاءتنى خلعة سنية لا أزال أرتديها فى الأعياد وفى أيام المقابلات الرسمية . وهنأنى كافة الأصدقاء فشعرت من السرور بما لم أشعر بمثله من قبل

وكتبت قصيدة أمدح بها الملك وأثار ثأراً مضاعفاً من وزير المالية ، وكان كل بيت فيها محتملاً معنيين أحدهما فى مدح الملك والآخر فى ذم الوزير .

وكنت فضلاً عن الشعر الذى تفوقت فى صناعته تفوقاً عظيما ، على جانب كبير من المعرفة بالميكانيكا فاخترعت آلات نالت إعجاباً شديداً فى القصر الملكى واخترعت كذلك نوعاً من الورق وآخر من الحبر وبعض أنواع الثياب . وقد تركت الشعر مدة كنت فى خلالها أشتغل باختراع أقمشة تغنى عن التى نستوردها من أوربا . فطلبنى الشاه وأمرنى بأن أعود إلى نظم الشعر وأترك الاشتغال بالأقمشة لأن ما يرد من أوربا يكفى مؤونة الاختراعات فصدعت بأمر جلالته ...

ولما جاء يوم النيروز استعد كل من خدم جلالته لتقديم هدية إليه كما هى العادة فى هذه البلاد ونظمت قصيدة رائعة فى مدحه فكتبتها بخط جميل ووضعتها فى إطار ثمين وقدمتها إليه ، فلما سمعها منى وقرأها أمر كل وزرائه ورجال حاشيته بأن يقبلوا فى ففرحت بإكرامه لى وإن كان قد ساءنى اختيار هذا النوع من الجزاء

وأخذ الناس لا يعدون الفردوسى شيئاً يذكر بالقياس لهذا الشاعر الحديث

وكذلك صرت من أقرب المقربين إلى الملك وانفتحت أمامى أبواب الغنى كما انفتحت أبواب الجاه

وكان آخر ما أكرمنى به أن أرسلنى إلى شيراز مندوباً عن جلالته لأسلم الحلة السنوية التى يرسلها إلى ولى عهده . وأرسل معى هدايا غالية وعهد إلى باستلام الضرائب من الجباة فى الطريق ، فكانت جملة ذلك عظيمة جدا

ولما حدث حادث الأمس ضاع كل ذلك فلم يبق منه شيء فصرت أنعس إنسان في الوجود. وإذا أنت لم تهيئ لي الطريق إلى الفرار فاني سأموت أسيراً بين هؤلاء اللصوص . ولو سمع الملك بأسرى فانه يتمنى خلاصي ولكنه لايدفع ديناراً واحداً ليفتديني لأن وزير ماليته لابد أن يحاول منعه عن ذلك منتهزاً فرصة غيابي . ولأن رئيس الوزارة يكرهني كذلك لأني قلت في يوم من الأيام وقد جرى بيننا الحديث عن الفنون الصناعية والفنون الأدبية : « إنه لا قيمة لحكمته ومعارفه إذا لم يكن يعرف من الصناعة تركيب الآلات التي تدور بها ساعته على الأقل » . وربما كانت الأموال التي أنيت بها قد سرقت جميعها وهكذا أصبحت يائساً . ولكنني أتوسل إليك بجامعة الاسلام التي تربطني بك أن تساعدني إذا أمكنتك المساعدة »

الفصل الثامن

عاجي بابا يهرب مع الأسر

لما انتهى الشاعر من سرد قصته أكدت له استعدادي لبذل كل ما في وسعي لخدمته، ولكنني أوصيته بالصبر وبالتجلد في الوقت الحاضر لأني لم أملك بعد حريتي ومن الصعب أن أحميه وأحمي نفسي قبل أن أصير حراً، وأفهمته صعوبة الفرار منهم لأن رقابتهم شديدة على الصحراء وجيادهم مثل جيادنا وهم أكثر خبرة بالطريق فالهرب إذن لايمكن أن يكون إلا حماقة . وخير وسيلة هي الصبر وانتهاز الفرص

جاوزنا الصحراء ووصلنا إلى الطريق الذي يمر بين طهران ومشهد وصرنا على بعد عشرين فرسخاً من داماجان ، فأمرنا أصلان بالبقاء يوماً أو يومين في هذا المكان لعلنا نجد فيه قافلة فنهاجمها لأن هذا الطريق هو طريق القوافل

وفي فجر اليوم التالي عاد إلينا أحد جواسيسنا يقول إنه رأى غباراً يتطاير من الجهة الغربية وإن قافلة ستقبل نحونا آتية من داماجان إلى مشهد . فقيدنا الأسرى وتركناهم في المكان الذي نحن فيه على أمل أن نعود إليهم متى فرغنا من مهاجمة القافلة وسرنا نحوها راغبين في السرقة وسفك الدماء

وكان في المقدمة أصلان سلطان وكنت بجانبه وقال لي : « هذه فرصة سانحة لك ياحاجي بابا لتتعلم كيف تقود هذه الغزوات في المستقبل . إنني أصبحت لا أستغني عنك لأننا قد نجد قوافل ليس فيها فرد واحد يعرف اللغة التركية وسأجعلك مترجمي الخاص »

وكنا كلما اقتربنا من القافلة نرى أصلان سلطان يزيد قلقاً واضطراباً . وأخيراً قال : « أخشى ألا تكون هذه قافلة فان نظام الصفوف يدل على أنهم جنود ؛ وفضلا عن ذلك أرى وميض الأسنة وشيئاً يشبه الأعلام »

ولما زاد اقترابنا منهم اتضح لنا أنهم جنود وأن الموكب موكب رسمي ولعله موكب حاكم مسافر من مدينة إلى مدينة فخفق قلبي سروراً لعلمي أن هذه أحسن فرصة سنحت لي للفرار وليس عليّ إلا الاقتراب حتى أمكنهم من أسرى دون أن أثير ريبة في نفوس التركمان، وقد يعاملني الجنود معاملة سيئة في مبدأ الأمر ولكنهم سيعلمون بلا ريب بعد فترة قصيرة حقيقة أمري فيمتنعون عن إساءة المعاملة . وقلت لأصلان : « تعال نجر نحوهم. ودون أن أنتظر أمره جريت بجري خافي لكي يعنفني ولكننا صرنا على مسافة قريبة منهم ، فعاد وعدت معه وكان يسرع لكي ينجو وكنت أبطيء لكي أقع في الأسر

وفى هذه الأثناء انشق بعض الفرسان عن الموكب وجروا خلفنا ونجحت مناورتى فأسرت ولكنهم فتشونى وأخذوا ما معى من الزاد والثياب وأخذوا الخمسين قطعة من الذهب وصندوق المواسى أيضا وتحملت ضربهم إياى ولطمهم وجهى بصبر وجلد حتى جيء بي أمام زعيمهم وقد تبينت من شكله ومن ملابسه أنه أمير وزال كل شك عندما ضربنى الجنود وأمرونى بالسجود فى حضرة « الشاه زاده »

ولما خفت أن يقتلونى اجترأت فأمسكت بثوب الأمير وأنا راكع عند قدميه وصحت « بيناه بى شاه زاده ! » أي أنا فى حماية الأمير صاحب السمو الملكى »

ولم يكن لأحد أن يعتدى علىّ فى هذه الحالة لأن التشبث بثوب الأمير يعتبر عند الفارسيين لاجئاً إلى شخص مقدس كما يفر المذنبون فى أوربا إلى الكنيسة فلا يجوز اعتقالهم . وقد أمرهم سموه بأن يبتعدوا عنى ووعد بأن يحميني فقبلت الأرض بين يديه وشرحت حالتى بأكثر ما يمكن من الايجاز وطلبت إليهم إذا أرادوا التحقق من صدق قولى أن يبعثوا بعدد من الفرسان ليقبضوا على التركمان . وقلت لهم إنهم إذا فعلوا ذلك فسيجدون فى أسرهم شاعر الملك واثنين من الوجهاء الفارسيين وقلت إن عدد التركمان قليل بحيث يسهل التغلب عليهم .

لكن الفرسان الذين كانوا يطاردون أصلان سلطان عادوا فى هذا الحين وأقسموا كذباً أن عدد التركمان كان يربو على الألف فأكدت لهم أن عددهم لا يعدو مائة فكذبونى واتهمونى بأنى جاسوس وبأنى أريد الشر بجنود الأمير وتوعدونى بالقتل إذا قام التركمان بهجوم ضدنا

ثم سار الموكب فى غير الاتجاه الذى يؤدى إلى لقاء اللصوص وقد بدا عليهم من الخوف ما يبدو على كل فارس يسمع لفظة « تركمان »

أخذ منى جوادى وأركبت بغلا من البغال التى تحمل الأمتعة ولم يكن بجيبي درهم ولا فيمن حولى صديق وندمت على الحماقة التى دفعتنى إلى الانتقال من أسر التركمان إلى أسر الجنود الفارسية وارتكنت على ما اعتاده قومى من حرية الكلام فأخذت أصيح بصوت عال : « أتدعون أنفسكم مسلمين ؟ إنكم قوم لا شعور لهم ولا إحساس وإن التركمان أكثر رجولة منكم »

لكن هذا النوع من الشكاية لم يستثر غير الضحك والسخرية ممن سمعوه فاستبدلت به لهجة الضراعة وأخذت أتوسل بعلى والحسين وبأرواح آبائهم وحياة أبنائهم وأذكر رابطتى الدين والوطنية واستعطفتهم بذكر ما لاقيته فى أسر أعدائى وأعدائهم فلم أجد عطفاً إلى من رجل واحد اسمه «على خاطر» وقد قال لى وهو يشعل لفافته : « إن هذه الدنيا بيد الله يابنى . وإذا كان الله قد جعل لون هذه الدابة أبيض فهل يستطيع على خاطر أن يجعل لونها أسود؟ وإذا كان الله رزقنى شعيراً فهل أستطيع أن أجعله قمحاً ؟ احمد الله على حظك حسناً كان أو سيئاً وتمثل بقول حافظ الشيرازى : « إن كل ساعة تمر عليك ربح لا يمكن تعويضه »

تعزيت بهذا القول بعض العزاء ولم أعجب من تمثل الجندى بشعر حافظ فان التمثيل بالشعر أمر شائع عند الفارسيين فهم أمة شعرية . وقد عاملنى هذا الرجل معاملة عطف وشفقة وقاسمنى طعامه فى بقية الطريق وأخبرنى أن الأمير الذي وقعت فى أسره هو النجل الخامس للشاه وأنه عين حاكماً

لفاطمة خراسان وهو ذاهب الآن ليتولى الحكم فيها وأنه مستصحب من الجنود أكثر مما اعتاد أن يستصحبه ليرهب التركمان ، وأن الأوامر صدرت إليه بألا يدخل معهم فى موقعة جدية إلا إذا اضطر إلى ذلك ولكنه إن تلاقى مع عدد قليل منهم فليقطع رؤوسهم وليرسلها إلى طهران لتعلق على باب القصر الملكى .

قال لى الجندى : « احمد الله على أن سحنتك ليست كسحنة التركمان وإلا لقطعوا رأسك وأرسلوها إلى طهران فتحسب هناك من رؤوس الثوار .

ولما استرحنا من المسير فى الليل عزمت على أن أحاول مقابلة الأمير وأرجوه أن يرد لى الخمسين قطعة من الذهب التى أخذت منى وثيابى وجوادى كذلك ، وكان صوت فى نفسى يحدثنى بأن حقى فى هذا المال ليس أكثر من حق الذى سلبه منى . وقد انتهزت فرصة قبل صلاة العشاء فتقدمت إليه .

وكان جالساً على نمرقة فى خيمة نصبت له وقد حاول الجنود منعى ولكننى صحت : « عرظى داروم » أى « معى عريضة » فأمرنى سموه بأن أدخل وسألنى عما أريد

فشكوت إليه معاملة الجنود الذين سلبونى مالى عند ما اعتقلونى وطلبت إليه أن يأمر برد هذا المال وجوادى وثيابى

فسأل من حوله عن أسمائهم ، فلما أخبروه بهم استدعاهم فلما حضروا بين يديه سألهم عن مالى فانكروا أنهم أخذوا شيئاً منى . وأمر بتفتيشهم فلم يوجد معهم شىء . ولكننى أقسمت ورأى الأمير على وجهى علائم الصدق فأمر بجلدهم وطرحوهم على ظهورهم فوق الأرض ورفعوا أرجلهم المقيدة بحبل مربوط من الطرفين فى عصا غليظة وضربوهم ، فاعترفوا بالمال

عند ذلك صحت بأعلى صوتى مخاطباً الأمير : « أعطنى المال إذن »

فنظر سموه بكبرياء إلى من حوله وقال : « ماذا يقول هذا ؟ اضربوه بالحذاء على فمه إذا عاد إلى الكلام

فرفع أحد الجنود حذاء أخضر يظهر أنه أعد خصيصاً ليضرب به المذنبون وقال : كيف تجرؤ يا وغد على مخاطبة الأمير بهذه اللهجة ؟ إذهب وافتح عينيك وإلا قطعنا أذنيك »

ثم دفعنى بعنف إلى الجنود فقادونى من حضرة الأمير

عدت يائساً إلى صاحبى الذى لم يظهر شيئاً من الدهشة لما حدث وقال لى : « ما الذى كنت تنتظر ؟ أليس هو الأمير ؟ وهل تظن أى إنسان يرد شيئاً بعد أن يصير فى حوزته ؟ إن هذه البغلة لا تعطيك من الحشائش الخضراء بعد أن تصير فى فمها ، وكذلك لا يعطيك الأمير المال بعد أن أصبح تحت تصرفه

« يتبع » عبد اللطيف النشار

المجموعة الأولى
للرواية
١٥٣٦ صفحة
فيها النص الكامل لكتاب اعترافات فنى المصرى موسيه ، والأذيسة لهوميروس ، ومذكرات نائب فى الأرياف لتوفيق الحكيم ، وثلاث مسرحيات كبيرة و ١١٦ قصة من روائع القصص بين موضوعة ومنقولة .
الثمن ٣٤ قرشاً مجلدة فى جزءين
و ٢٤ قرشاً بدون تجليد
خلاف أجرة البريد